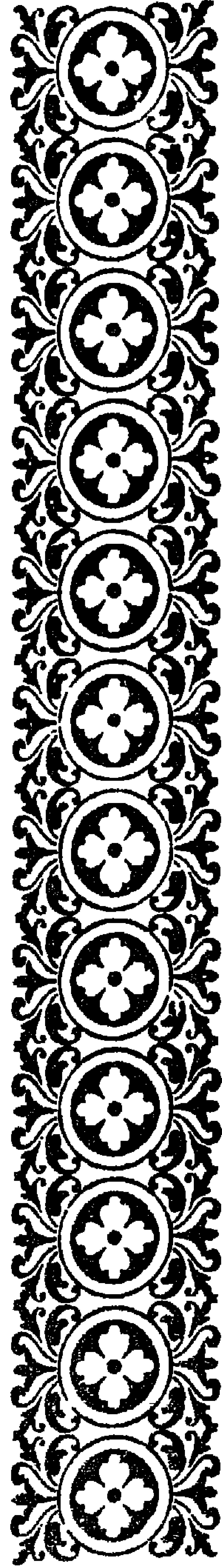
الدكتور السعيد الورقى

فى
مصادر التراث العربى

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦



في مصادر التراث العربي



الدكتور السعيد الورقي

في مصادر التراث العربي

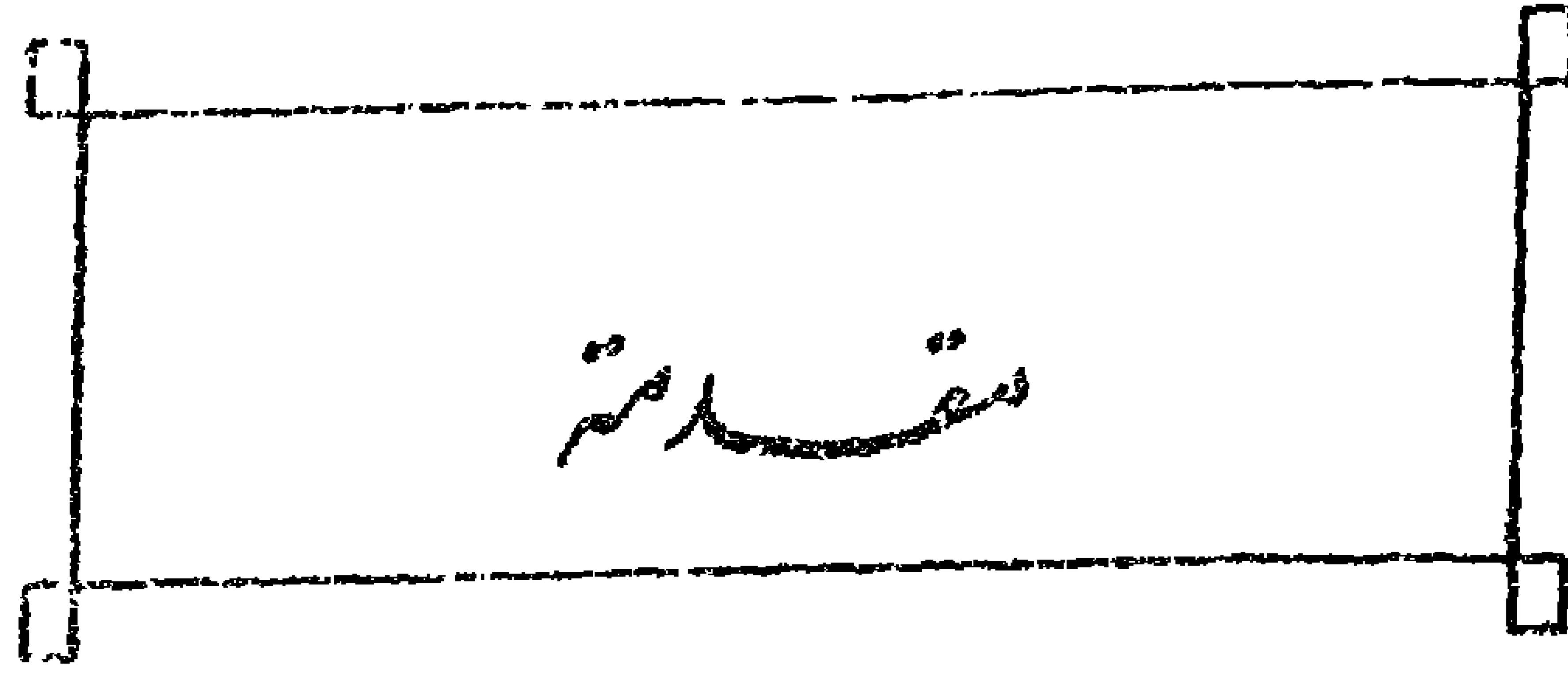
٢٠٠٠

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية

للطبع والنشر والتوزيع

* الإدارة : ٤٠ شارع سوتير
الأزاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣
* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبى - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦



مقدمة

المقصود بمصادر التراث العربي كل ما كتب باللغة العربية من تراث فكري وفني لآثار مكتوبة موروثة حفظها التاريخ من الماضي حتى وصلت إلينا داخل الحضارة السائدة .

والتراث العربي المدون ، برغم كثرة ما فقد منه ، تراث ضخم كما وكيفا . ولا تزال آثاره في العلوم البحتة كالرياضة والجغرافية والطب ، مع ما إستحدثته هذه العلوم من متغيرات ، لا تزال هذه الآثار معدودة في قمة الإنتاج الفكري . كما لا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلاً وجذراً من جذور علم الإجتماع والفلسفة المعاصرة[1] .

ويطول بنا الحديث إذا ما أردنا أن نبين القيمة العلمية للتراث العربي ، وأهمية ما قدمه علماء العربية ومؤلفوها من منجزات حضارية .

ويكفي أن نقرأ كتاباً في فهارس العلوم العربية ، لنتعرف على كم هائل من العلوم العربية ، وعلى الاف المؤلفات من هذه العلوم .

فقد ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون أسماء ما يقرب من مائتي علم من العلوم العربية منها : علم آداب البحث والمناظرة ـ علم الآلات الحربية ـ علم الآلات الرصدية ـ علم إنبساط المياه ـ علم الأوزان والمقادير ـ علم البيطرة ـ علم تدبير المدينة ـ علم ترتيب العسكر ـ علم

---

(١) عبد السلام هارون · التراث العربي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٧ .

ـبر والمقابلة ـ علم الجراحة ـ علم الجغرافيا ـ علم الرياضة ـ علم السياسة ـ السيمياء ـ قوانين الكتابة ـ الفلاحة ـ الكهانة ـ المعادن ـ الملاحة ـ الموسيقى ـ علم الهندسة وغيرها

وفي كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » للفيكونت فيليب دي طرازي احصاء لعدد هائل من المؤلفات العربية في مختلف فروع العلم والمعرفة .

من الطبيعي إذن ـ وعلى هذا النحو ـ أن تكون المكتبة العربية مكتبة ثرية وغزيرة بالمصادر المتنوعة والهامة ـ ليس فقط بالنسبة لدارسي الحضارة العربية ، وإنما أيضاً لمن يدرس الحضارة الإنسانية ومسيرتها عبر العصور .

ومما يذكر للعرب كذلك ، أنهم كانوا سباقين في التفكير في إحياء التراث بواسطة النساخين والوراقين ، اعترافاً منهم بأهمية حفظ واحياء ودراسة كل ما خلفه السابقون من مؤلفات . فيذكر المقريزي ـ على سبيل المثال ـ أنه كان في خزانة العزيز بالله ثلاثون نسخة من كتاب العين ومائة نسخة من جمهرة ابن دريد[1] .

ولم يكتف العرب ـ قديماً ـ في سبيل احياء التراث بهذا فقط ، بل نراهم يعمدون إلى شرحه والتعليق عليه . فهذا كتاب سيبويه (ت ١٨٠) في النحو ، يقوم على شرحه أكثر من خمسين عالماً في أجيال متعاقبة ، منهم السيرافي والرماني والزمخشري وغيرهم .

أما احياء التراث في العصر الحديث ، فقد ارتبط بالمطبعة التي كانت عاملاً فعالاً في « نشر التراث الفكري على نطاق واسع وعلى صور شتى ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ومراحل متدرجة من الدقة والعناية

---

(١) المقريزي : الخطط ، ص ٢ ـ ص ٢٥٣

حتى وصلت إلى ما يشبه القمة في عصرنا الحاضر»[1] .

ظهرت الطباعة بالعربية في أوائل القرن السادس عشر في إيطاليا ، وانتشرت بعد ذلك في أوربا وتركيا ولبنان ، ولكن الإهتمام بطبع التراث العربي ونشره لم يأخذ شكلاً جدياً الا منذ قبيل هذا القرن بقليل . وتمثل هذا في عدد من المطابع والهيئات التي قامت بنشر العديد من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر إلى جانب الكتب الدينية . ومن المطابع التي ساهمت في هذا الإحياء : المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان ، التي انشئت في مالطة عام ١٨٢٢ ثم نقلت إلى بيروت عام ١٨٣٤ . والمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٥٤ ، والمطبعة السورية لخليل الخوري ١٨٥٧ ومطبعة المعارف للبستاني ١٨٦٧ .

وبإنشاء مطبعة بولاق ١٨٢١ ، انتقلت حركة الطباعة إلى مصر ، فقدمت مئات الكتب العربية في الطب والرياضة والطبيعة والفنون الحربية والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وغيرها .

ثم ظهرت بعد ذلك بمصر عدة مطابع أهلية ، منها المطبعة الأهلية القبطية ١٨٦٠ التي عرفت بعد ذلك بمطبعة الوطن ، ومطبعة وادي النيل ١٨٦٦ التي أنشأها أبو السعود أفندي ، ومطبعة جمعية المعارف ١٨٦٨ التي أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر .

وساعد على إحياء التراث ونشره بإعادة طبعه وتحقيقه ظهور عدد من الجمعيات ودور النشر التي قامت على احياء التراث ومنها إلى جانب مطبعة بولاق ، شركة طبع الكتب العربية ، ودار الكتب المصرية ، والمكتبة الميمنية ، ودار الكتب العربية الكبرى ومكتبة مصطفى الحلبي ودار احياء الكتب العربية ومكتبة الخانجي والمكتبة السلفية ولجنة التأليف والترجمة

---

(١) ـ عبد السلام هارون · التراث العربي ، ص ٤٣ .

والنشر ودار المعارف وجامعة القاهرة والمجمع اللغوي بالقاهرة والمعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف وإدارة التأليف والترجمة والنشر وغيرها .

هذا إلى جانب دور النشر العديدة بالعالم العربي ومنها بدمشق المجمع العلمي العربي والمعهد العلمي الفرنسي ، وببغداد ؛ مكتبة المثنى والمجمع العلمي العراقي ودار المعارف للتأليف والترجمة والنشر ، وببيروت دار الثقافة .

« ولقد كانت فكرة احياء التراث والنشاط فيه ، فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركي وضغطه ، كان يأخذ بمخنق العرب في بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان اسلافهم ، في الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية ، فانطلقوا في هذا السبيل ينشرون ويحيون ، إذا كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر »[1] .

والحقيقة إنه لا يمكن اغفال دور المستشرقين وجهدهم في إحياء التراث العربي ، خاصة وإنهم بذلوا جهوداً علمية جادة في تحقيق النصوص وتوثيقها في دقة وأمانة ، كما اهتموا اهتماماً خاصاً باعداد الفهارس الفنية لهذه المصادر . ومن هؤلاء المستشرقين :

١ - وستنفلد الألماني Wustenfeld (١٨٠٨ - ١٨٩٩) الذي حقق ما يقرب من مائتي كتاب ، منها سيرة ابن هشام ومعجم ما استعجم للبكري .

٢ - بيفان الهولندي Bevan (١٨٥٩ - ١٩٣٤) ، ومن نشره نقائض جرير

---

(١) عبد السلام هارون : التراث العربي ، ص ٤٩ .

والفـرزدق بعـد أن زوده بـالفهـارس العـديـدة والتعليقـات والشـروح المفيدة .

٣ - رودلف جاير الألماني Rudon Geyer (١٨٦١ - ١٩٢٩) الذي حقق ديوان الأعشي بعد أن راجع نصوصه على ٥٦٩ مرجعاً .

٤ - وليم رايت الانجليـزي W. wright (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الـذي نشـر كتاب الكامل للمبرد للمرة الأولى نشرة مزودة بالفهارس الدقيقة .

كما لا يمكن كذلك اغفال جهـود جمعيات المستشـرقين ومنهـا جمعية المستشرقين الألمانية التي أنشئت عام ١٨٤٥ بمدينة هالة بالمانيا ، ثم أنشأت فروعاً لها في الشرق ، منها فرع الأستانة ١٩١٨ ، وفرع القاهرة الذي سمي بمعهد الآثار ، ومعهد الدراسات الشرقية ببيروت ١٩٦٠ وقد قامت الجمعية بنشـر وتحقيق عـدد من أمهـات الكتب العربيـة ، منهـا مقالات الإسـلاميين لـلأشعري والـوافي بالـوفيـات للصفـدي والمحتسب لابن جني وطبقات المعتزلة وكتاب النجاة للمرزباني وغيرها .

ودراسة التراث في مصـادره بعد إحيـائه ليس واجباً قومياً فحسب ، وإنمـا هو إلى جـانب هذا ضـرورة حضاريـة للتعرف عـلى مسـار الحضـارة البشرية وكيف انتهت إليـه والدور الـذي قام بـه العرب في مـرحلة ازدهار حضارتهم خلال عصور أوربا الوسطى . كما إنه من نـاحية أخرى مصدر هام وضروري لدارس هذه الحضارة العربية قديمها وحديثها .

وهـذا الكتـاب يحـاول أن يقـدم للقـارىء والـدارس نمـاذج من هـذه المصنفات التي تزخر بها المكتبة العربية مع التعـرف على مؤلفيهـا ومكانتهم العلمية .

وهي محاولات تعريفية ، قصد بها اختيار بعض المصـادر العربيـة ذات القيمـة العلمية والقـاء بعض الأضواء عليهـا مـع تقـديم نمـاذج من المـادة

العلمية التي يحتويها المصدر . وأنا أرجو من النهاية بهذا العمل ، أن امكن القارىء من التعرف على بعض مصادر التراث العربي ، تعرفاً يعينه على البحث في هذه المصادر من ناحية ، وعلى معرفة قيمة كل مصدر منها وما يضمه من مادة علمية .

أرجو أن يكون هذا العمل عونا لهذا القارىء على الإيناس بأمهات الكتب العربية هذه .

السعيد الورقي

تمهيد
في نشأة العلوم العربية

أولاً : فجر التدوين في نطاق العلوم القرآنية :

اهتم الإسلام بالعلم وشجع عليه ودعا إلى تحصيله . فكان الرسول يحث المسلمين رجالاً ونساءً على طلب العلم ، لهم ولأهلهم وذويهم .

والأحاديث النبوية على هذا كثيرة ، منها قوله عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . « ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس في المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله الى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم »(١) .

وقد ألقت أفكار الرسول وتعاليمه آثارها ، فأنتجت جماعة أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الاسلامي ، منهم علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ، فنبغ علي في القضاء ومعاذ في العلم بالحلال والحرام وزيد في تقسيم المواريث والأنصبة في الغنائم وأبي في قراءة القرآن .

---

(١) د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٥٩ ، حـ ١ ، ص ٤٩٥

« وقد تفرق هؤلاء العلماء وغيرهم من الصحابة في الأمصار الأسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية والتف حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس »[1] .

وبعد أن انتقل النبي عليه السلام إلى جوار ربه ، نشأت على يد هؤلاء الصحابة أصول العلوم . فجمع القرآن وتحريت قراءاته ، وحفظ الحديث وضبطت رواياته ، وتكلم قوم في تاريخ الغزوات النبوية والفتوح الإسلامية ، كما اتجه آخرون إلى الفقه واللغة باعتبارهما متصلان بالقرآن والحديث .

« توزع الصحابة في الأمصار معلمين للناس ومستشارين وحكاما ومفتين، ثم كان لكل صحابي مدرسة من مريديه ، وهؤلاء المريدون هم التابعون ، وكان للتابعين مريدون أيضاً فعرفوا بتابعي التابعين . وهكذا اتسع نطاق الثقافة الدينية ورُحبت آفاقها على يد هؤلاء وأولئك في هذا المصر أو ذاك ، فنشأت نواة الحركة العلمية العقلية بعد جيلين أو ثلاثة من جيل الصحابة والتابعين »[2] .

وهكذا كانت عناية المسلمين في صدر الأسلام وحتى الدولة الأموية مقصورة على العلوم الدينية وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية ، ثم ما يتصل بهذه العلوم من نحو ولغة وأخبار ونوادر وسير وشعر ونثر وخطابة بعد ذلك ، وهي مجموع العلوم النقلية .

---

(١) تاريخ الاسلام ، جـ ١ ، ص ٤٩٦ .

(٢) د مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ ص ٢٢ .

وقد تمثل نشاط العلماء العرب في هذه العلوم بالتدوين أولاً ثم بالجمع والتصنيف والتأليف بعد ذلك .

ولقد كان النحو من أوائل العلوم التي دونت بعد القرآن . كان ذلك في عهد علي رضي الله عنه ، عندما كتب أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) مبادىء أولية في هذا العلم .

يقول ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء « وكان أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي . وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوي الرأي . وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية . فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس . فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم »[1] .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ آمر بتدوين الأحاديث المحفوظة . ولكنه يموت قبل اتمام مشروعه . ولم يلبث محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أن قام بأول محاولة لتدوين الحديث ، ويتبعه بعد ذلك الأمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ) حين جمع ما توافر له من أحاديث نبوية في كتابه الموطأ في المدينة» ،أويقدم على نفس الجهد عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج في مكة ١٥٠ هـ وعبد الرحمن الأوزاعي في الشام ١٨٣ هـ وسفيان الثوري في الكوفة ١٦١ هـ وحماد بن سلمة بن دينار في البصرة ١٧٦ »[2] .

وتتابع الجهود بعد ذلك في القرون التالية فمنها ما تكتفي بجمع الأحاديث فقط كصحيح البخاري (محمد بن اسماعيل البخاري ١٩٤ -

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص ١٢ .

(٢) د . مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ) . ومنها ما يتجه إلى دراسة الحديث وتحقيقه وإلى وضع معايير لها وللمحدثين، أصبحت بمثابة الأصول العلمية الأولى في البحث والأخذ والتأليف .

ومن العلوم المتصلة بالقرآن والتي دونت في فترة مبكرة كذلك الفقه . فقد دون أبو حنيفة النعمان (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) مذهبه في الفقه ، وتبعه بعد ذلك جمهور كبير من المجتهدين .

هكذا كانت العلوم النقلية التي تتصل بالقرآن الكريم هي أسبق العلوم التي اهتم العلماء العرب بالتأليف فيها وذلك لإرتباط هذه العلوم بالقرآن والحديث من ناحية ، ولأهميتها في تفسير النص الديني من ناحية أخرى.

ثانياً : التأليف الأدبي العام والاتجاه نحو التخصص :

لم تلبث حركة التدوين والتأليف أن اتسعت ، وخاصة بعد ظهور حركة الترجمة ، وتعرف العرب على مجموعة العلوم العقلية التي اطلقوا عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة أو علوم الأوائل ، والتي تشمل : الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء والتأريخ والجغرافيا .

وتذكر الأخبار أن معاوية استحضر من اليمن عبيد بن شريه الجرهمي وسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وأمر افتراق الناس في البلاد وغيره ! ، ثم أمر معاوية بتدوين معلومات عبيد منسوبة إليه.[1] وتنسب الأخبار إلى عبيد الجرهمي هذا كتابين هما « كتاب الأمثال » و « كتاب أخبار الملوك الماضين » .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٨ .

ويذكر إبن النديم في بعض مروياته أنه رأى أبواباً في النحو عن أبي الأسود الدولي مكتوبة بخط يحيى بن يعمر ، وبعض المعلومات الأخرى مكتوبة بخط النضر بن شميل[1] .

وهناك العديد من الأخبار الأخرى التي تدلل على أن التدوين بدأ منذ فترة مبكرة . منذ عهد معاوية ، وإن كان الأرجح أن حركة التدوين الفعلية ، خاصة في مجال العلوم العقلية قد ظهرت متأخرة قليلاً ؛ خاصة منذ عهد خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية ، فيذكر ابن النديم له أكثر من كتاب في هذه العلوم العقلية منها : كتاب الحرارات وكتاب وصيته لابنه في الصنعة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير[2] .

وجاء العصر العباسي ، وقد شهدت الحياة العقلية العربية العديد من المدونات التي جمع فيها كاتبوها جملة من المعارف النقلية والعقلية . امتلأت بها بيوت الأمراء والعلماء كما تذكر الروايات التي تحدثت عن خزانة الكتب التي كانت عند الوليد بن يزيد ، وعن كتب أبي عمرو بن العلاء (٧٠ ـ ١٥٤ هـ) التي ملأت بيتا إلى قرابة سقفه[3] ، وعن مكتبة عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان التي امتلأت بدفاتر من العلوم الدينية والعلوم الدينوية[4] .

كانت المدونات في بدايتها كما لاحظنا تتجه إلى الجمع لعديد من المرويات والمعلومات المحفوظة والمنقولة . ولم يكد يهل القرن الثاني الهجري حتى كان التفاعل الحضاري بين مجموع الشعوب الإسلامية قد بدأ في

---

(١) الفهرست ، ص ٦٧ .

(٢) الفهرست ، ص ص ٥١١ ـ ٥١٢ .

(٣) الأغاني ، جـ ٤ ، ص ٥٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٦٦ .

الظهور واضحاً جلياً ، خاصة بعد اتساع حركة الترجمة عن الهندية والفارسية واليونانية » واتساع آفاق العلوم الإسلامية نفسها التي سارت في خدمة العقيدة والثقافة الدينية من حديث وفقه وعلم كلام وتفسير ولغة ونحو وصرف وأدب وتاريخ وغير ذلك ، بحيث يمكن القول بأنه قد تشكل ما يمكن أن نسميه بالعقل الإسلامي الذي حفظ وتعلم ووعى واكتسب ثم أعطى بوفرة وسخاء »[1]

وهكذا ظهرت المؤلفات العربية ، وفقا للمنهج الذي تصوره حاجي خليفة للتأليف ، حينما رآه يجري على سبعة أقسام: إما لشيء لم يسبق فيخترعه ، أو شيء ناقص يتمه أو شيء مغلق يشرحه أو شيء يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه أ- شيء أخطأ فيه مصنفه فيصححه

وقد ساعد على اتجاه العقلية العربية والاسلامية إلى التدوين ثم التأليف ، تكوين الكاتب المنشيء الذي استقامت أمامه لغة الكتابة التي يتمكن بها ومن خلالها عرض ما لديه من أفكار .

ومن أوائل هؤلاء الكتاب الرواد سالم مولي هشام بن عبد الملك ويحيى بن يعمر العدواني كاتب يزيد بن المهلب الذي ولى قضاء خراسان على عهد قتيبة بن مسلم الباهلي

وكان يحيى بن يعمر هذا أحد شيوخ أبي الأسود الدؤلى ، كما كان عالماً بالقراءة والحديث والفقه ولغات العرب[2] .

ومنهم كذلك عبد الله الطالبي وعبد الحميد بن يحيى وعبد الله المقفع وغيرهم .

---

(١) د . مصطفى الشكعة مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص ٦١

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ ٢٠ ، ص ٤٢

صدرت التأليفات العربية المبكرة متأثرة بالمفهوم الذي كان سائداً آنذاك للأدب من أنه الأخذ من كل شيء بطرف ، وأنه يشمل كل ما كتب . ولهذا فقد اشتملت بواكير التأليفات العربية على الأخبار والأشعار والنوادر وعلى اللغة وقضايا النحو وعلى التاريخ والحكمة .

ومن السهل أن نرى هذا واضحاً في المؤلفات التي وصلت إلينا لأوائل المؤلفين العرب أمثال : المفضل الضبي - والخليل بن أحمد - يونس بن حبيب - النضر بن شميل - هشام بن الكلبي - الأصمعي - الهيثم بن عدي - المدائني - الجاحظ - ابن قتيبة الدينوري - المبرد - ثعلب - الصولي - المرزباني - الثعالبي وغيرهم .

لقد كانت هذه الفترة في تاريخ التأليف عند العرب فترة الموسوعات الأدبية التي يمكن أن نراها بوضوح في أعمال الجاحظ وخاصة البيان والتبيين ، وفي مؤلف المبرد « الكامل في اللغة والأدب » .

ولم تلبث حركة التأليف عند العرب أن اتجهت نحو التخصص ، فكانت هناك مؤلفات خاصة في كل فرع من فروع المعرفة إلى جانب الموسوعات الأدبية التي اتسعت لتصبح دوائر معارف في شتى العلوم والفنون .

فمن أمثلة المؤلفات المتخصصة في علوم اللغة كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد وكتاب الأضداد لابن الأنباري ، ومن المؤلفات المتخصصة في علوم القرآن : مجاز القرآن لأبي عبيدة وكتاب التيسير في القراءات السبع للداني والجامع لأحكام القرآن للقرطبي . ومن المؤلفات المتخصصة في التاريخ تاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ الأندلسي لابن القوطية . ومن المؤلفات المتخصصة في الجغرافيا : صورة الأرض للخوارزمي والمسالك والممالك لابن خرداذبة .

ومن الموسوعات العامة أو دوائر المعارف نذكر العقد الفريد لابن عبد ربه ونهاية الأرب للنويري ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وصبح الأعشي للقلقشندي .

وسنحاول في هذا الكتاب أن نتحدث عن بعض المصادر الأدبية العامة أولاً ثم المصادر الموسوعية ، ثم نتحدث بعد ذلك عن نماذج من المصادر المتخصصة .

الباب الأول

في

المصنفات الموسوعية

في المصنفات الموسوعية

كان للأدب في الحضارات القديمة ومنها العربية مفهوم متسع عما هو عليه الآن ، فقد كان يضم في الغالب كل ما يكتب من علوم العصر وفنونه . فنرى أرسطو في كتابه فن الشعر يطلق على كل العلوم حتى التجريبية مصطلح فن ، وإن فرق بين هذا الفن وبين الفنون البحتة وهي فنون الإبداع . ويقول الحسن بن سهل أحد وزراء العصر العباسي إن الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن .

فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاها الناس في المجالس .

ومن هنا غلب على المؤلفات التي شهدتها الحياة الفكرية العربية خاصة في مرحلة التجميع ، هذا الطابع العام ، فكانت موسوعات أدبية تضم نتفاً من هنا وهناك وأخباراً وملاحظات ومعلومات ونصوصا شعرية ونثرية .

وهذا ما نراه في أعمال كاتب موسوعي مثل الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وخاصة البيان والتبيين والحيوان والبخلاء .

وقد سيطر هذا الإتجاه على عدد من الكتاب بعد ذلك ممن اتجهوا إلى اعداد موسوعات أدبية عامة حتى بعد الإتجاه إلى التأليف التخصصي . ومن أشهر هذه المؤلفات الموسوعية في التراث العربي نذكر :

- عيون الأخبار لابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ، ت ٢٧٦ هـ) .

- الكامل في اللغة والأدب للمبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ، ت ٢٨٦ هـ) .

- أخبار الرسل والملوك للطبري (محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) .

- العقد الفريد لابن عبد ربه (أحمد بن محمد ، ت ٣٢٨ هـ) .

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين ، ت ٣٥٦ هـ) .

- نشوار المحاضرة للتنوخي (المحسن بن علي ، ت ٣٨٤ هـ) .

- زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني (أبو اسحق ابراهيم ، ت ٤١٣ هـ) .

- الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي (أبو حيان علي بن محمد بن العباس ، ت ٤١٤ هـ) .

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت ، ت ٤٦٣ هـ) .

ولا شك أن هذه المؤلفات الموسوعية في الأدب وفنونه بالمفهوم القديم كانت البدايات التي مهدت لظهور الموسوعات العامة أو دوائر المعارف بالمفهوم الحديث .

والظاهرة المثيرة للإنتباه ، أنه باستثناء عدد قليل من هذه الموسوعات العامة فإن أغلب هذه الأعمال قد كتبت في العصر المملوكي . وقد حاول الباحثون دراسة هذه الظاهرة فأرجعها بعضهم إلى سمة العصر الفكرية حيث كان عصر احياء ماذوى ولم شتات ما اندثر من آثارنا الفكرية ،

خاصة بعد أن تعرض التراث الفكري الإسلامي للتدمير بعد الغزوات الصليبية وهجمات المغول[1] .

وإلى جانب هذه الظاهرة ، فهناك ظاهرة أخرى سيلاحظها الباحث على هذه المؤلفات الموسوعية المملوكية ، وهي أنها « منصبة في أكثر جوانبها على دراسة البيئة المصرية بصفة خاصة دراسة أدبية اجتماعية تاريخية اقتصادية جغرافية »[2] .

ومن هذه الموسوعات العامة يأتي قبل العصر المملوكي :

- العقد الفريد لابن عبد ربه (أحمد بن محمد ، ت ٣٢٨ هـ) .

ومن موسوعات العصر المملوكي نذكر :

- لسان العرب لابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن علي المصري ت ٧١١ هـ) .

- نهاية الأرب في فنون العرب للنويري (أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٣ هـ) .

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩ هـ) .

- كتاب العبر لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) .

- صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي (أبو العباس محمد بن عبد الله ، ت ٨٢١ هـ) .

وسنحاول هنا بشيء من التفصيل ، أن نتحدث عن نماذج من هذه

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي ، ص ٣١٥ .

(٢) د . مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العرب ، ص ٧٣٤ .

المؤلفات الموسوعية ، ومنها ما يمثل ـ في اختيارنا ـ الموسوعات الأدبية :

ـ البيان والتبيين للجاحظ

ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد .

ـ العقد الفريد لابن عبد ربه .

ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

ومنها ما يمثل الموسوعات العامة بمفهوم دوائر المعارف :

ـ العقد الفريد لابن عبد ربه .

ـ لسان العرب لابن منظور .

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون .

ـ صبح الأعشي للقلقشندي .

الجاحظ وكتاب البيان والتبيين

الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني . عاش في الفترة ما بين ١٥٩ هـ - ٢٥٥ هـ وهي الفترة التي شهدت حكم المهدي والمأمون والمتوكل والمنتصر والمستعين بالله والمهتدي بالله .

ولد الجاحظ بالبصرة في خلافة المهدي إذن وكانت الدولة آنذاك تموج بصراعات فكرية واجتماعية وسياسية متعددة ومعقدة ، بين خليط من اجناس وعقائد متباينة ، فكان هناك العربي وغير العربي وكان هناك اليهودي والمسيحي والمسلم والمجوس . وكان هناك المسلم السني والمسلم الشيعي الزيدي المعتدل ، والمسلم الشيعي الغالي والمعتزلي وغيرهم من الفرق الأسلامية الأخرى .

وفي هذه البيئة المعقدة نشأ الجاحظ بالبصرة التي كانت آنذاك « أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع في مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة والأدب عُرفوا بالمسجديين ، فأقبل إليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية »[1] .

وفي البصرة درس الجاحظ على أعلم علماء عصره ، فأخذ الأدب واللغة عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ودرس النحو على الأخفش ودرس علم الكلام على النظام .

---

(١) حنا الفاخوري : الجاحظ ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ، ص ص ١٥ - ١٦ .

واتصل بالثقافة اليونانية بمصاحبته حسين ابن اسحق وسلموية وبالثقافة الفارسية عن طريق أبي عبيدة وابن المقفع.

كما تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاها عن خطباء العرب في المربد وكانت سوقاً قرب البصرة يختلف اليه الشعراء والخطباء فكان مجتمع العرب ومتحدثهم .

وكان إلى ذلك يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر كما يقول عنه ابن النديم[١] .

وبالاضافة إلى هذه المصادر المتنوعة لثقافة الجاحظ ، كان الجاحظ يتميز بحس قوي الملاحظة لما يدور حوله ، ولهذا تفوق على معاصريه من العلماء بالقدرة على معايشة الناس ومراقبتهم[٢] .

وهكذا كان الجاحظ عالماً بفنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام وكان له في كل فن من هذه الفنون والعلوم نصيب في التأليف ، فكان من ثم كما يقول عنه ديلاسي أوليري في كتابه Arabic thought and its place in History «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» ، من أنه كان كاتباً جامعاً على مثال كتاب دوائر المعارف ، وعلى نحو ما كان شائعاً في عصره . فكتب في الأدب والتوحيد والمنطق والفلسفة والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وموضوعات أخرى[٣] .

وقد أثرى الجاحظ المكتبة العربية بعديد من المؤلفات التي تمثل ثقافته الموسوعية هذه .

---

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) د . عز الدين اسماعيل : المصادر الأدبية ، ص ١٣٨

(٣) ص ١٤٣ من الترجمة العربية للدكتور تمام حسان المؤسسة المصرية العامة ، في عالم الكتب سلسلة الألف كتاب

وقد قيل إن آثاره هذه بلغت ما يزيد على ثلاث مئة وخمسين كتاباً ضاع منها عدد كبير .

أما ما وصل منها الينا فقد طبع معظمه ، ولا يزال بعضه مخطوطاً في مكتبات عديدة بين الشرق والغرب .

ومن مؤلفاته في علوم الدين والفلسفة :

- كتاب الإستطاعة وخلق الأفعال .
- كتاب الإعتزال وفضله وهو المسمى أيضاً « فضيلة المعتزلة » .
- كتاب خلق القرآن .
- كتاب آي القرآن .
- كتاب الرد على اليهود .
- كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير .

ومن مؤلفاته في السياسة والاقتصاد :

- كتاب الإستبداد والمشاورة في الحرب .
- رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة .
- رسالة في الخراج .
- كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات .
- كتاب الزرع والنخيل والزيتون والأعناب .

ومن مؤلفاته في التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات :

- كتاب الأخبار وكيف تصحّ .

- كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية .

- كتاب الأمصار .

- رسالة في الكيمياء .

- كتاب المعادن .

- كتاب الحيوان .

ومن مؤلفاته في الإجتماع والأخلاق :

- كتاب البخلاء .

- رسالة في إثم السكر .

- كتاب أخلاق الشطار .

- كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة .

- كتاب القحطانية والعدنانية .

- كتاب العرب والعجم .

ومن مؤلفاته في الأدب :

- البيان والتبيين .

كتاب البيان والتبيين

أما كتاب البيـان والتبيين فهـو من آخر مـا ألف الجاحظ والأرجـح أن الجاحظ قصد منه أن يكون بحثاً شاملاً في البيان العربي وما يتصـل به من بلاغة وفنون بيان وخاصة فن الخطابة الـذي كان في عصـر الجاحظ فنـاً له أصوله وقـواعده وأسـرار صنعته ، حيث شـاع آنذاك الجـدل والمناظـرة بين الفـرق الإسلاميـة المختلفة وعلى رأسها المعتزلة، والجـاحظ أديب المعتـزلـة الأول .

وكـأنما أراد الجـاحظ أن يجمع في هـذا الكتاب كـل ما يعين الخطيب من ثقافتومعرفة ،وما يجب أن يتوافر فيه من موهبة يأخذها بالمران والصقـل ومداومة الأخذ عن العلماء . وبالـرغم مما يبـدو على الكتـاب من تشتت في تناول الموضوعات وتسلسلها منطقيا ، حتى ليبدو الكتاب في النهاية مختارات أدبية من القرآن والحديث والشعر ونماذج الخطبـاء والبلغاء ممتـزجة بمـا يعن للجاحظ من آراء تولدها المناسبة وتطرحها ثقافته الواسعة، بـالرغم ممـا قد يـلاحظه البـاحث على الكتـاب على هـذا النحو ، الا أن النـظرة المـدققـة ستلاحظ أن للكتاب موضوعا رئيسيا يسيطر عليه إلى حد كبير ، وهو الذي يوجه الكاتب إلى اختيار مختاراته . . وهذا الموضـوع الرئيسي هـو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون وكما مارسها علماء الكلام ومن بينهم الجاحظ . ونظرة إلى محتوى الكتاب تؤكد لنا هـذا . فقد بـدأه بالاستعـاذة من العى ثم تحـدث عن نعمة فصـاحة اللسـان وعـاب التشـدق والتقعر وانتقل إلى الحديث عن اختـلاف لغة العـرب في استعمال الألفـاظ ، حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيـوب اللسـان مشيـراً في ذلك إلى أشهـر الخطب والخطباء ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى البلاغة فيتحدث عن البلاغة في

الشعر وفي اللسان وفي الكلام المسجع مقدماً نماذج كثيرة من الحديث الشريف والخطب والحكم ، ثم يتهيأ للدفاع عن فصاحة العرب وخطبائهم ضد اتهامات الشعوبية وذلك في كتاب العصا ، ثم يتكلم عن الزهد وعن النساك وعن كلامهم ومواعظهم .

فالكتاب على هذا النحو تدور مادته بدون شك حول الفصاحة والبلاغة »[1] .

ويمكننا أن نجمل الموضوعات الرئيسية في كتاب البيان والتبيين في الموضوعات الآتية :

١ ـ استنباط أصول البيان ومعناه

٢ ـ الخطابة وتقاليدها الأدبية ومظاهرها السلوكية .

٣ ـ الدفاع عن فصاحة العرب ضد اتهامات الشعوبية .

أما البيان فيعرفه الجاحظ بقوله « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام . فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان[2] .

وإنه أي البيان ـ الدلالة الظاهرة على الخفي . والبيان بهذا المعنى هو الذي دعا إليه الله ونطق به القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت

---

(١) د عز الدين اسماعيل ، ص ١٤٢ المصادر الأدبية واللغوية

(٢) البيان والتبيين ، ص

أصناف المعجم[1] . والجاحظ هنا يستخدم البيان بالمفهوم العام الذي يجمع بين التعبير والبلاغة

أما الموضوع الثاني الذي عالجه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين فهو الخطابة فتحدث الجاحظ في كتابه عن أعلامها وعن تقاليدها الفنية والسلوكية .

والخطابة عند الجاحظ كما نراها في كتابه ليست فقط فنا نثريا قوليا يصدر عن متكلم أمام جمهور في موضوع يهمها ، وإنما يطلق الجاحظ لفظ الخطابة « على فنون القول التي تستدعيها المواقف الإجتماعية المختلفة عند البدو والحضر ، من استنفار للقتال واجتماع للصلح والزواج والتعزية والتهنئة والمفاخرة والدعوة إلى الله والتعبير عن رأي القبيلة أو المدينة التي يتكلم الخطيب باسمها في شئون السياسة والحكم ، لذلك تشمل : الخطبة والمناظرة والمنافرة والمناقلة والوصايا »[2] .

والواقع أنه يمكننا أن نعد حديث الجاحظ عن الخطابة بمثابة التطبيق العملي لأبحاث المعتزلة ومنهم الجاحظ في البيان والبلاغة . ومن هنا اهتم الجاحظ بكل ما يتصل بهذا الفن فتحدث عنه حتى أصبح كتاب البيان والتبيين المصدر الأساسي « لمعرفة تقاليد الخطابة في الجاهلية والقرنين الأول والثاني الإسلاميين »[3] .

أما الموضوع الثالث في كتاب البيان والتبيين فموضوع يظهر نزعة الجاحظ العربية ، عندما سعى إلى الرد على مزاعم الشعوبية مؤكداً ما للعرب من مظاهر البلاغة ، فيقول في كتاب العصي « وكل شيء

---

(١) البيان والتبيين ص

(٢) د . أحمد فشل : آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها في البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجري ، الهيئة المصرية العامة فرع الأسكندرية ١٩٧٩ جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

(٣) شارل بلا · الجاحظ ص ١٦٨

للعرب، فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام. اوليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة . وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين ان يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً »(١) .

هذا على مستوى التنظير ، أما الناحية التطبيقية فقد كان حظ الكتاب منها كثيراً .

هذا وقد كان لكتاب البيان والتبيين أهمية كبيرة في الحياة الثقافية عند معاصري الجاحظ ومن جاء بعده حتى قال عنه ابن خلدون « سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها »(٢) .

ولأهمية البيان والتبيين هذه ، فقد اعتمدته أغلب المؤلفات التالية مصدراً هاماً وأساسيا . ومن هذه المؤلفات : الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة وأدب الكتاب للصولي وكتاب الكتاب لابن درستويه والصناعتان لأبي هلال العسكري والعمدة لابن رشيق وسر الفصاحة لابن سنان وغيرها .

ولا تقف أهمية الكتاب عند حد اهتمام القدماء ، فالواقع إن الباحث الحديث في تاريخ الأدب العربي والبلاغة العربية ، بل وفي تاريخ الحضارة

---

(١) جـ ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ط . بيروت ، ص ٥٥٣ .

العربية لا بستطيع بحال من الأحوال أن يتجاهل البيان والتبيين للجاحظ .

وقد نشر الكتاب في العصر الحديث أكثر من نشره . نشر أولاً بين ستي ١٣١١ ـ ١٣١٣ هـ في مجلدين ، وقام بنشره حسن الفكهاني والشيخ محمد الزهري الغمراوي . ونشر بعد ذلك نشرة في ثلاثة مجلدات عام ١٣٣٢ باشراف محى الدين الخطيب ثم نشر نشرة ثالثة أخرجها حسن السندوبي عام ١٣٤٥ هـ في ثلاثة مجلدات .

وفي عام ١٣٦٧ هـ ـ (١٩٤٨) ظهرت طبعة جديدة للكتاب بتحقيق عبد السلام هارون ، وتعتبر أدق النشرات التي ظهرت للكتاب من حيث ما توافر لها من تحقيق علمي ، وبتلك الفهارس العديدة التي زود بها المحقق الكتاب .

من مصادر الدراسة :

ـ ابن الأثير ، عز الدين (ت ٦٣٠ هـ) .

اللباب في تهذيب الأنساب ، القاهرة ، مكتبة القدس ١٣٥٧ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

ـ ابن الأنباري ، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ) :

نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٥٩ ، ص ١٣٢ .

ـ ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) :

وفيات الأعيان ، تحقيق د احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ص ٤٧٠ .

من مراجع الدراسة :

- أحمد الحوفي :

الجاحظ ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة .

- د . أحمد كمال زكي :

الجاحظ ، سلسلة أعلام العرب ، العدد٦٢،فبراير ١٩٦٧ ، دار الكاتب العربي ، القاهرة .

- بروكلمان ، كارل :

الجاحظ (تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، جـ ٣ ، ص ١٠٦ ، دار المعارف بمصر ١٩٦) .

- جميل جبر :

الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٥٩ .

- جورج غريب :

- الجاحظ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ .

- حسن السندوبي :

- أدب الجاحظ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٣١ .

- حنا الفاخوري :

الجاحظ ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ، سلسلة نوابغ الفكر العربي .

- خليل مردم :

- الجاحظ ، دمشق ١٩٣٠ .

- داود سلوم :

- النقد المنهجي عند الجاحظ ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٦٠ .

- عبد الحكيم بلبع :

أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، مطبعة الرسالة ، القاهرة .

- محمد عبد المنعم خفاجي :

أبو عثمان الجاحظ ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة .

- د . محمد طه الحاجري :

الجاحظ ، حياته وآثاره ، دار المعارف بمصر ، سلسلة الدراسات الأدبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

نصوص من
كتاب البيان والتبيين

النص الأول ______________ باب البيان

قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقّادِ : المعاني القائمةُ في صـدور الناس ، المتصوَّرةُ في أذهـانهم ، والمتخلجـةُ في نفـوسهم ، والمتصلةُ بخـواطـرهم والحادثةُ عن فكرهم مستورةٌ خفيةٌ ، وبعيدة وحشيةٌ ، ومحجوبـةٌ مكنونـة ، وموجودةٌ في معنى معدومةٍ .

لا يعرف الإنسـان ضمـير صاحبه ولا حاجـة أخيهِ وخليـطه ولا معنى شـريكه والمعـاون له عـلى أموره وعـلى ما لا يبلغـه من حاجـات نفــسه الا بغيره .

وإنما تحيا تلك المعـاني في ذكرهم لهـا ، وإخبارهم عنهـا ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقـربها من الفهم ، وتجليهـا للعقل وتجعـل الخفي منها ظاهـراً والغائب شـاهـداً والبعيـد قـريبـا . وهي التي تلخص الملتبس وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيـداً و المقيد مطلقاً والمجهول معروفاً والوحشي مألوفاً والغفل موسوما ، والموسوم معلوماً .

وعـلى قدر وضـوح الدلالـة وصواب الاشارة وحسن الإختصـار ودقـة المـدخل ، يكـون اظهار المعنى . وكلما كـانت الـدلالـة أوضـح وأفصـح ، وكانت الأشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع .

والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيانُ الذي سمعت الله تبـارك وتعالى يمدحه ، ويدعـو إليه ويحث عليـه . بذلـك نطق القـرآن ، وبذلـك تفاخرت العرب وتفاضلت أصنافُ العجم .

والبيانُ اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيانُ ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام . فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم أعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلافُ حكم الألفاظ ، لأنه المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة .

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد :

أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد[1] ثم الخط ثم الحال وتسمى « نُصْبةً » والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات . ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صور صاحبتها وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني من الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامتها ، وعن طبقاتها في السار والضار ، وعما يكون منها لغواً بهرجاً[2] وساقطا مُطّرحا .

تعليق :

فالجاحظ هنا يدرك تمام الإدراك أنه لا مكان لتصور أفكار مجردة ، كما أكدت الفلسفاتُ الحديثة ، لأنه حتى في حالة التفكير الغير منظم فأنت

---

(١) قبضة اليد أو نشر الأصابع للدلالة على الحساب المراد

(٢) بهرج : زائف

تفكر بلغة وعلى هذا فالمعاني المجردة - إذا كان هناك امكان لتصورها - لا قيمة لها في الواقع وإنما القيمة الحقيقية في الصياغة والتعبير ، فبها تحيا المعاني على حد قوله . وبها تقاس قيمة هذه المعاني ، وبها يتم - وهذا الأهم - التوصيل بين الأفكار. فالعمل الأدبي عند الجاحظ إذن له قيمة لا يتأتى قياسها الا من خلال عملية التوصيل التي تتم في عملية الصياغة .

والواضح هنا أن الجاحظ لا يفصل بين الأفكار والصياغة أو بين المضمون والشكل بالمفهوم المعاصر تحيزاً إلى الشكل على حساب المضمون كما ذهب بعض شارحيه فقد جعل حياة المعاني بالصياغة الأمر الذي يشعرنا بالحركة والإنماء والحياة في ذلك المزيج الحي من الأفكار والصياغة ، وهذا هو البيان عند الجاحظ ، أي القدرة على منح الحياة للمعاني على نحو يتم من خلاله التوصيل الذي يؤدي إلى قيمة .

النص الثاني ـــــــــــــــ في الخطابة والخطباء

يقول الجاحظ نقلاً عن أبي دُؤاد بن جرير في ذكر الخطابة ومتطلباتها وصعوبة هذا الفن وما يحتاجه من خبرة وقدرة خاصة .

« تلخيصُ المعاني رِفْقٌ ، والاستعانةُ بالغريب عَجْزٌ ، والتشادُق من غير أهل البادية بُغض ، والنظرُ في عيون الناس عِيٌّ ، ومسُّ اللحيةِ هُلْكٌ ، والخروجُ مما بُني عليه أول الكلام إسهاب » .

« رأس الخطابة الطبع ، وعمودُها الدُّربةُ ، وجناحاها رواية الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤُها تَخيرُ اللفظ . والمحبةُ مقرونةٌ بقلةِ الاستكراه » .

« وفي الخطباء من يكون شاعراً ، ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مُفوها بيِّنا ، وربما كان خطيبا فقط ، وشاعراً فقط ، وبين

اللسان فقط . والخطباءُ كثيرٌ ، والشعراءُ أكثر مُنهم ، ومن يجمعُ الخطابةَ والشعر قليلٌ .

[٦٤ وما بعدها جـ ١ ، ط السندوبي] .

تعليق :

فالجاحظ هنا يفرق بين خطيب يملك القدرة وامكانيات الخطيب ، لكنه أقل عِلوقاً بالنفس ، وتأثيراً فيها حيث يتعامل مع العقول فحسب ، وبين خطيب شاعر يملك الإقناع والتأثير معاً ، وبين شاعر يملك التأثير ولا يملك الإقناع .

وواضح أن الجاحظ يرى أعلى مرتبة في الخطيب الشاعر ، ذلك الذي يملك بلاغة التعبير وقوة الإبانة كما يتصف بحس الشاعر وحساسيته ، وما يمكن أن يضيفه على الموضوع من ذاته وانفعالاته مما يجعله أشد لصوقا بالنفس وعلوقا بها .

كذلك تناول الجاحظ في هذه الفقرة بعض ما يجب أن يتوافر للخطيب من خبرة فنية وقدرات خاصة ، واستعداد أولي .

فهو يرى أن أساس الخطابة الطبع وهو ما نعنيه بالمقدرة الخاصة أو الملكة الخاصة والاستعداد الفطري ، ثم يرى أن هذا الطبع في حد ذاته لا يكون خطيبا إذ لا بد من صقل هذه الموهبة وتدريبها وتنميتها وتوجيهها ، وسبيل ذلك تمرس الخطيب ، وتزوده بالخبرة الفنية المعينة ، وتعرفه على أسرار صنعته الفنية .

والجاحظ بما لديه من خبرة فنية ، كونت مقدرته على الحكم الفني ، يضع أمام الخطيب بعض الملاحظات التي استقاها من تلك الخبرة . وهي ملاحظات كما نرى ترجع في بعضها إلى أسلوب الخطيب وقدرته وخبرته في فنه وبعضها إلى مظاهر سلوكية خاصة بالخطيب .

« فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة ، وتُنسب إلى هذا الأدب ، فقرضتَ قصيدةً ، أو حبَّرتَ خطبةً ، أو ألفتَ رسالةً ، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك او يدعُوك عُجبُك بثمرةِ عقلك إلى أن تنتحلهُ وتدّعيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عُرض رسائل أو أشعار أو خطب فإن رأيت الأسماع تُصغي له ، والعيونَ تحدجُ اليه ، ورأيت من يطلبُه ويستحسنُه ، فانتحلْهُ .

فإن كان ذلك في ابتداء أمرك ، وفي أول تكلفك فلم تر له طالباً ولا مستحسنا فلعله أن يكونَ ـ ما دام رَيِّضا قضيباً أن تحلّ عندهم محلَّ المتروك ، فإن عاودتَ أمثال ذلك مراراً ، فوجدتَ الأسماعَ عنه منصرفة ، والقلوبَ لاهية فخذ في غير هذه الصناعة ، واجعل رائدك الذي لا يكذبُكَ حِرصَهم عليه ، أو زُهدَهم فيه » .

[جـ ١ ، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ط . السندوبي]

ـــــــــــــــ تعليق : ـــــــــــــــ

استطاع الجاحظ في هذه الفقرة بخبرته الأدبية ، ومقدرته النقدية ، وحسه الفني أن يصل إلى عدد من القضايا المتعلقة بالفن :

أول هذه القضايا أن الفن خبرة وصناعة لها أسسها وتقاليدها الفنية .

وثاني هذه القضايا أن الفنان بحاجة إلى الإئتناس بمجموع الخبرات الفنية .

أما القضية الثالثة فهي احساسه بأن المرجع الأساسي في الفن هو الاحتكام إلى تلك الأعمال التي تمثل محك الاختبار أمام غيرها من النماذج الفنية .

ليس هذا فحسب هو ما لاحظه الجاحظ في فقرته تلك ، فقد لاحظ أيضا مدى خطورة اعتماد الفنان في قياسه لعمله على حكمه الخاص الذي غالبا ما يكون صادراً تحت تأثير من احساسه المتضخم بذاته .

النص الرابع

فنون من الكلام

« وأنا أذكر بعد هذا فناً آخر من كلامه ﷺ . وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصَّنعة ، ونُزِّه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد « وما أنا من المتكلِّفين » فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشيَّ ، ورغِب عن الهجين السُّوقيّ ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم الا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّر بالتوفيق . هو الكلامُ الذي ألقى الله عليه المحبة وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارت له حُجة ، ولم يقم له خَصم ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتجُّ الا بالصِّدق ، ولا يطلبُ الفَلَجَ (الظفر) الا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة ، ولا يستعمل المُوارَبة ، ولا يهمزُ ولا يَلْمِزُ ولا يُبطىء ولا يعجل ، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر .

ثم لم يسمع الناسُ بكلام قطُّ أعم نفعا ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجملَ مذهبا ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنىً ولا أبين فحوى ، من كلامه ﷺ .

[البيان والتبيين ، جـ ٢ ، ص ١٧ - ١٨] .

النص الخامس : رأى المأمون في كتب الأمامة

« ولما قرأ المأمون كُتبي في الإمامة فوجدها على ما أُمر به ، وصِرْتُ إليه ـ وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليُخبره عنها ـ قال لي :

قد كان بعضُ من يُرتضى عقلُه ، ويُصدَّقُ خبرُه ، خبَّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصَّنعة ، وكثرة الفائدة .

فقلنا له : قد تُربي الصِّفةُ على العيان .

فلما رأيتُها ، رأيتُ العيانَ قد أربى على الصفة .

فلما فَلَيْتُها أربى الفَلْيُ على العيان كما أربى العيانُ على الصِّفة .

وهذا كتابٌ لا يحتاجُ إلى حضور صاحبه ، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاءَ المعاني ، واستيفاءَ جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزْل ، والمخرج السهل . فهو سُوقي ملوكي ، وعاميّ خاصّي » .

[جـ ٣ ، ص ٣٢٩] .

تعليق :

للجاحظ كتب في الإمامة منها : كتاب الامامة على مذهب الشيعة ، وكتاب إمامة معاوية بن أبي سفيان وكتاب إمامة ولد العباس

وتعليق المأمون على كتب الأمامة للجاحظ هنا كشف عن طبيعة مؤلفات الجاحظ وخصائص اسلوبه في الكتابة .

فهي مؤلفات كثيرة الفائدة لما حاولت أن تقدمه للقارىء من مادة اخبارية ، ومعلومات ثقافية وطرف ونوادر ، ثم نماذج أدبية مختارة من

الشعر والنثر . فهي مؤلفات إذن تجمع بين الإمتاع والافادة ، بين التسلية والمنادمة وبين التهذيب والتثقيف استيفاءً لجميع الحقوق على حد تعبير المأمون .

اما خصائص أسلوبه فقد لاحظ المأمون كما لاحظ الباحثون المحدثون قدرة أسلوب الجاحظ على مخاطبة كل المستويات من خلال اسلوبه السهل الممتنع هذا .

الكامل في اللغة والأدب للمبرد

[١٩٠ - ٢٨٤ هـ]

المبرد بكسر الراء المشددة وفتحها ، هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ولد في عصر المأمون ما بين عامي ١٩٥ هـ و ٢٢٠ هـ . وتوفي في عصر المعتضد . ما بين عامي ٢٨٤ هـ و ٢٨٦ هـ .

والرواة يختلفون في سني مولده ووفاته ، كما يختلفون في نسبه وفي سبب تسميته بالمبرد وهل المبرد بكسر الراء المشددة أم بفتحها ، ويسوقون الأخبار وراء هذه التسمية .

نشأ المبرد بالبصرة ، وفيها أخذ عن شيوخها أبي عثمان بكر بن محمد المازني ت ٢٤٩ هـ وأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ت ٢٤٨ هـ وأبي عمر صالح بن اسحاق ت الجرمي ٢٢٥ هـ ، كما تتلمذ على يد الجاحظ وروى عنه . ويجمع الذين ترجموا للمبرد على سوغ المبرد وتفوقه في النحو ومسائل اللغة حتى انه أصبح أمام النحويين البصريين بعد وفاة شيخه أبي عثمان المازني .

وعن المبرد أخذ كثير ممن ذاع صيتهم بعد ذلك ، النحو واللغة ، منهم الزجاج والصولي ونفطويه النحوي وابن السراج والأخفش الأصغر وغيرهم .

وإلى جانب ثقافة المبرد في الدراسات النحوية واللغوية ، كان مثل استاذه الجاحظ مثقفاً موسوعياً ، فكان ذواقاً للشعر حافظاً للكثير منه كما كان فصيح اللسان بارع البيان .

وللمبرد ما يقرب من خمسين كتاباً تمثل ثقافته المختلفة ، في اللغة والشعر والبلاغة وعلوم القرآن وفي الأدب والأنساب وتراجم الرجال ،

وأغلب هذه المؤلفات لم يصلنا منها سوى اسمائها التي حفظتها كتب التراجم والسير

فمن كتبه المنشورة : كتاب الكامل وكتاب الفاضل وكتاب المقتضب وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم وشرح لامية العرب وكتاب المذكر والمؤنث .

ومن كتبه التي ذكرها ابن النديم ولم تصلنا : احتجاج القرآن - أدب الجليس - أسماء الدواهي عند العرب - الإشتقاق - الإعراب - اعراب القرآن - البلاغة - الخط والهجاء - صرورة الشعر - طبقات النحويين البصريين وأخبارهم - العروض - قواعد الشعر - القوافي

أما كتاب الكامل فهو أشهر كتب المبرد ، وأجلها شأنا . . والكتاب مجموعة من المختارات الأدبية يهتم من خلالها المبرد بشرح المشكلات اللغوية والنحوية التي تثيرها تلك النصوص .

وإلى جانب هذا فالكتاب يضم مادة غزيرة في التاريخ واللغة والأدب والنحو .

قدم المبرد لكتابه الكامل بمقدمة قصيرة وضح فيها منهجه الذي رسمه في عرضه لمادة كتابه وكذلك الغرض الذي دفعه الى هذا التأليف فيقول :

« هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب . ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً .

وهي مقدمة على قصرها توضح اتجاه المؤلف في كتابه كما توضح قيمة المادة الأدبية واللغوية وتنوعها فيه . وإن لم تكشف المقدمة عن أبواب الكتاب تفصيلاً .

ويبدو أن الكتاب كان مجموعة من الدروس التي كان المبرد يلقيها على

تلاميذه ومنهم الأخفش الذي جمع هذه الدروس المملاة وقرأها على استاذه وأجازها على نحو ما توضح سلسلة الرواية في بداية الكتاب : « حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ، قال ، حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر قال : حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش قراءة عليه ، قال قرىء لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المبرد » .

وقد أثر طبيعة تأليف هذا الكتاب على ترتيب مادته فكانت فصولاً وأحاديث متفرقة لا تخضع لمنهج محدد بموضوعات معينة .

فقد بدأ الكتاب بأحاديث متفرقة فنرى كلمة لأبي بكر في مرضه وعهده بالخلافة لعمر ، ونرى أول خطبة خطبها عمر ثم رسالة عمر في القضاء إلى أبي موسى وكتاب عثمان إلى علي بن أبي طالب حين أحيط به ، ومعاتبة عثمان علي وكلمة علي حين بلغه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله حسان بن حسان . وبعد هذه المختارات تبدأ مادة الكتاب تأخذ شكل الأبواب واسمها .

والباب عند المبرد في كامله ليس موضوعاً محدداً في أغلبه ، وإنما مجموعة موضوعات تستدعيها المناسبات . . وذلك باستثناء مواضع قليلة حدد المبرد لأبوابها عناوين لمادة الباب مثل : الباب الثامن والأربعون « باب من أخبار الخوارج » ـ الباب الخمسون « هذا باب النسب الى المضاف ـ الباب الواحد والخمسون « باب في اختصار الخطب والتحميد والمواعظ ـ ثم الباب الثالث والخمسون « باب ذكر الأذواء من اليمن في الاسلام » .

وقد تناول المبرد في كتابه الكامل العديد من المباحث المتصلة بالأدب واللغة . فمن الموضوعات التي تناولها في مباحثه اللغوية والنحوية : لغات العرب ـ علم الأصوات ـ الإشتقاق ـ اللغة العامية ـ صورة الجمع ـ القياس ـ والقراءات .

ومن المباحث الأدبية الى جانب النصوص الأدبية الكثيرة التي اختارها المبرد ، نجد أن بالكتاب بعض المباحث حول نقد النص الشعري نحوياً وبعض الترجمات الشعرية خاصة للشعراء المعاصرين له وأحاديث حول المنثور والمنظوم والسرقات الأدبية .

ومن المباحث البلاغية نجد موضوعات كثيرة في علوم البلاغة العربية من معاني وبيان وبديع تناولت مباحث كثيرة منها القلب البلاغي - القصر - الفصل والوصل - التشبيه - الكناية - المشاكلة والتقسيم .

وتناولت المباحث التاريخية والسياسية والاجتماعية في كامل المبرد موضوعات كثيرة تدور أغلبها حول الخوارج وأخبارهم وأدبهم وحروبهم ، كما تناول موضوعات حول العلويين والشيعة وحول الحركات الشعوبية وموضوعات حول أيام العرب وعاداتهم وإحيائهم وأمثالهم ، وموضوعات حول أذواء اليمن .

وطريقة المبْرد في عرضه لمادته العلمية هي أنه كما يقول « يذكر الشيء من وجوهه ونوادره » فهو يحاول أن يحيط بالموضوع الذي يعرضه وغالباً ما يكون نصا أدبيا من وجوهه المتعددة فيشرحه شرحاً لغوياً أدبيا ويفسره ويذكر جوانب عديدة من أشياء تتصل بالنص أو الموضوع ، وكأنه بهذا يسعى إلى الكشف عن غوامض الموضوع المعروضة للبحث من جوانبه المتعددة تيسيراً للدارس وتمكينا له في ذهنه .

كذلك نلاحظ في تناول المبرد لموضوعاته حرصه على عقد المقارنات وعلى استخلاص النتائج في نهاية الدرس . ولا شك أن للمدرسة البصرية العقلية اثراً في هذا الوجهة .

وإذا كان هذا المنهج منهجاً صالحاً للدرس الا أنه لا يصلح للتاليف

كثيراً لسيطرة الاستطراد والتكرار والاحالة على أبواب الكتاب مما أفقد الموضوعات في الأغلب الأعم عنصر الترابط والوحدة

وربما كان هذا المنهج مناسباً لمثل هذه التاليفات الموسوعية آنذاك والتي كانت تنظر إلى الأدب على أنه مجموع الثقافة العربية وهي ثقافة لم تكن قد عرفت التخصص بعد .

وقد أشار المبرد إلى هذه الخاصية في موضع من كتابه بقوله : نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون فيه استراحة للقارىء وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الإستطراف ، ويخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس . ,

ويتفق الباحثون على أن كتاب « الكامل » الذي أمامنا لم يؤلفه المبرد وحده ، وإنما شاركه فيه تلميذه الأخفش الذي روى عنه الكتاب ، فكثيراً ما نطالع في الكتاب تعقيبات وشروح مصدره بعبارة قال أبو الحسن (وهو أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش ت ٣١٥) . أما ما أملاه المبرد فنراه مصدراً بعبارة « قال أبو العباس » .

وكتاب الكامل من أهم الكتب التي تمثل امتزاج الحضارات وانعكاسها في الثقافة العربية ففيه مادة ثقافية وفيرة من أدب ولغة ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ واجتماع وسياسة وتفسير وسياسة .

ومن ناحية أخرى فالكتاب يعكس تكوين واتجاه المدرسة البصرية في تحررها وانطلاقها وتحريها الدقة وفقا للمقاييس العقلية . وقد تمثل هذا بوضوح في دقة المبرد في تحقيقه لمروياته . فنرى أمثال قوله « وحدثني العباس به الفرج الرياشي في اسناد قد ذهب مني أكثره » أو قوله معقبا على عبارة وردت في خطبة الإمام علي وهي « سيما الخسف » بقوله « هكذا حدثونا ، وأظنه سيم الخسف من قول الله عز وجل يسومونكم سوء العذاب . أما معنى

قوله : سيا الخسف فتأويله علامة ، هذا أصل ذا . قال الله عز وجل : سيماهم في وجوههم من أثر السجود » [جـ ٢ ، ص ٩١] .

ولقيمة الكامل العلمية والأدبية رآه ابن خلدون واحداً من أركان الأدب الأربعة التي لا معدى عنها لدارس أو أديب ، أما الثلاثة الأخرى فهي أدب الكاتب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر لأبي علي القالي .

وقد اعتمد عليه كثير من المؤلفين العرب القدماء في مؤلفاتهم وخاصة الآمدي في موازنته والعسكري في صناعتيه والقاضي الجرجاني في وساطته وغيرهم . كما اهتم القدماء كذلك بشرحه . ومن شراحه : ابن السيد البطليوس ت ٤١٤ هـ وهشام بن أحمد الوقشي ت ٤٨٩ هـ ومحمد بن يوسف السرقسطي ت ٥٣٨ هـ كما اهتم المحدثون بشرحه ونشره ..

فشرحه الشيخ سيد بن علي المرصفي في ثمانية أجزاء وأسماه « رغبة الأمل من كتاب الكامل » وطبع هذا الكتاب بمصر ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) .

كما قام الأستاذ السباعي بيومي بتهذيبه في جزئين الأول للمنثور والثاني للمنظوم وطبعه عام ١٩٢٣ م .

أما عن نشر الكتاب في العصر الحديث ، فقد نشر عدة نشرات كانت أولها في المانيا في ليبسك عام ١٨٦٤ في طبعة أعدها المستشرق الألماني وليم رايت مع مقدمة وفهارس . وطبع بالاستانة عام ١٢٨٦ هـ ثم طبع بالمطبعة العامرة بالقاهرة عام ١٢٨٦ هـ .

وتوالت الطبعات بعد ذلك فطبع بالمطبعة الخيرية بالقاهرة عام ١٣٠٨ هـ وأعيد طبعه في ليبسك ١٨٨١ ميلادية وكذلك في عام ١٨٩٢ . ثم

طبع بمطبعة التقدم بالقاهرة عام ١٣٢٣ هـ ، وبمطبعة الحلبي بمصر ١٣٥٥ هـ بتحقيق الدكتور زكي مبارك واحمد محمد شاكر

وتوالت طبعاته بعد ذلك حتى قام محمد أبو الفضل والسيد شحاته باعادة طبعه في أربعة أجزاء محققة ومذيلة بالتعليقات الفهارس .

مصادر ومراجع :

- عبد الخالق عضيمة : المبرد ، حياته وآثاره

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٥ .

- أحمد القرني : المبرد حياته وآثاره

سلسلة أعلام العرب - الهيئة المصرية - عدد ٩٤

- أبو الحسن عبد الله الخطيب :

المبرد ودراسة كتابه الكامل .

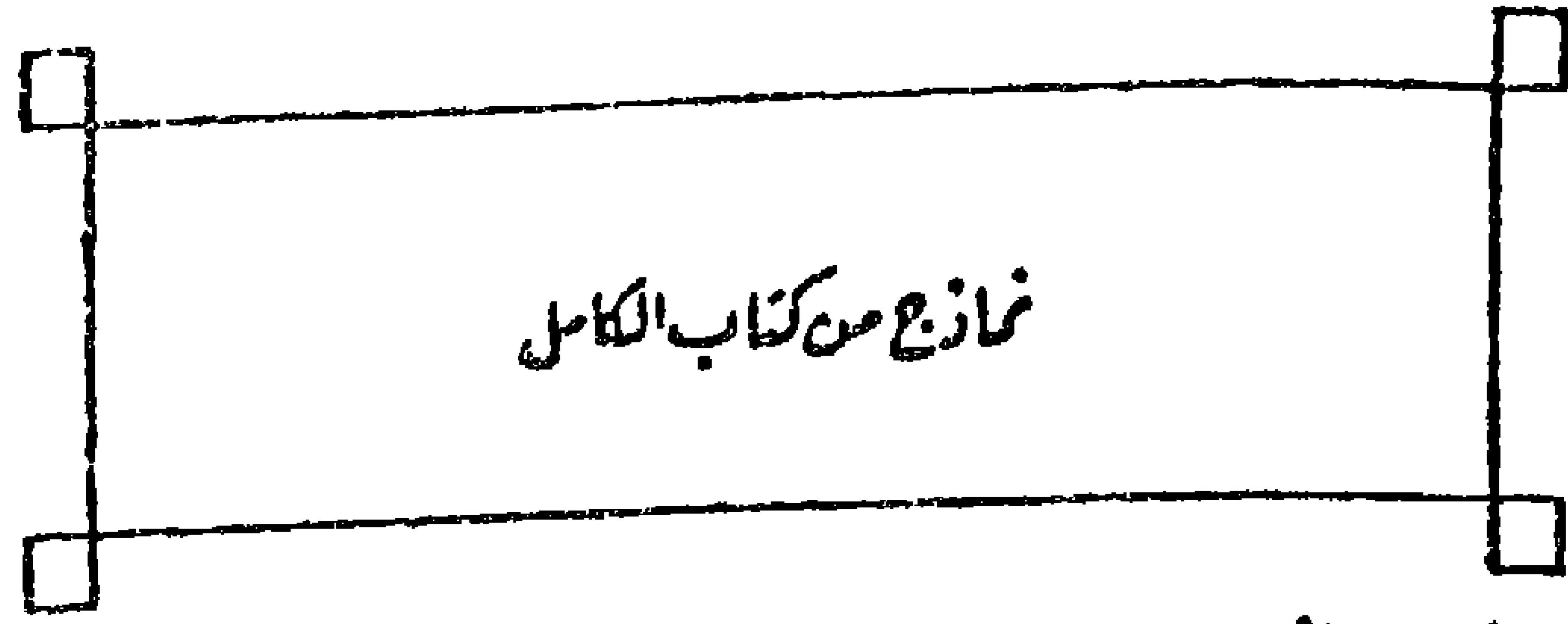
ابن الأنباري ، ابو البركات عبد الرحمن بن محمد :

نزهة الألباء في طبقات الأدباء

ابن النديم ، محمد بن اسحاق :

الفهرست

أبو الطيب ، عبد الواحد بن علي : مراتب النحويين .



النص الأول

نبذ من أقوال الحكماء

قال أبو العباس : قال بعض الحكماء : مَنْ أَدَّبَ وَلَدَهُ صغيراً ، سُرَّ به كبيراً .

وقال يقال : مَنْ أدَّبَ ولده أرْغَمَ حاسِدَهُ .

وقال رجل لعَبْدِ الملك بن مَرْوان : إني أريدُ أن أُسِرَّ إليك شيئاً ، فقال عبدُ الملك لأصحابه : إذا شئتم ، فَنَهَضوا ، فأراد الرجلُ الكلامَ ، فقال له عَبْدُ الملك قِفْ ، لاَ تمدحني ، فأنا أعْلَمُ بنفسي منك ، ولا تكْذِبْني ، فإنه لا رأيَ لمكذوب ، ولا تَغْتَبْ عندي أحداً . فقال الرجل : يا أميرَ المؤمنين ، أفتأذن لي في الأنصراف ؟ قال له : إذا شئت .

وقال بعض الحكماء : ثلاثٌ لا غُرْبَةَ معهنَّ : مجانَبَةُ الرِّيَبِ ، وحسنُ الأدبِ ،وَكَفُّ الأذى .

وقال عمرو بن العاص لِدهقانِ نَهْرِ تِيرَى : بِمَ يَنْبُلُ الرجلُ عندكم ؟ فقال : بترك الكذب ، فإنه لا يَشْرُفُ إلا مَنْ يُوثَقُ بقوله ، وبقيامِهِ بأمر أهْلِهِ ، فإنه لا يَنْبُلُ مَنْ يحتاجُ أهلهُ إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيَب ، فإنه لا يعزُّ مَنْ لا يُؤْمَنُ الاَّ يُصادق على سوأة ، وبالقيام بحاجات الناسَ ، فإنه مَنْ رُجِيَ الفرجُ لَدَيْهِ كثُرتْ غاشِيَتُهُ .

وقال بُزُرْجَمْهر : مَنْ كثُرَ أدَبُهُ كثُرَ شَرَفُهُ ، وإن كان قَبْلُ وَضيعا ، وبَعُدَ صيتُه وإن كان خامَلاً ، وسادَ وإن كان غريباً ، وكثُرت الحاجةُ إليه

وإن كان مُقْتراً وكـان يقال : عَلَيْكُمْ بـالأدب ، فإنـه صاحبٌ في السَّفر ، ومُؤنِسٌ في الوحدة ، وَجَمَالٌ في المحفِل ، وسَبَبٌ إلى طَلَب الحاجة .

وقـال بعض الملوك لبعض وُزَرائِه - وأراد مِحْنَتَهُ - ما خَيرُ ما يُرْزَقُه العبدُ ؟ قال : عَقْلٌ يعيش به ، قال فإن عَدِمه ؟ قال : فأدبٌ يتحـلى به . قـال : فإنْ عَـدِمَه ؟ قـال : فمالٌ يستـره . قـال : فـإن عَـدِمَـه ؟ قـال : فصاعِقَةٌ تحْرِقهُ فتريح منه العباد والبلاد .

[ص ٧٤ - الكامل - جـ ١ - دار نهضة مصر] .

النص الثاني

قال أعرابي - خُبِّرْتُ أنه من بني سعْدٍ - وقد تمَثَّل بهذا الشِّعْرِ الخِنَّوْتُ ، وهو تَوْبَةُ بن مُضَرِّسٍ ، أحد بني مالك بن سعد بن زيد مَناةَ بن تميم ، في خلافه الدَّمامة :

وَلَمَّا الْتَقَى الصَّفَّانِ وَاخْتَلَفَ الْقَنَا ... نِهالاً ، وأَسْبَـابُ المَنـايَـا نِهَالُهَـا
تَـبَـيـَّنَ لي أَنَّ الـقَـمَـاءَةَ ذِلَّـةٌ ... وَأَنَّ أشِـدَّاءَ الرِّجَـالِ طِـوَالُهَـا
دَعَـوْا : يَا لَسَعْـدٍ وَانْتَمَيْنـا لِطَيِّءٍ ... أُسُـودُ الشَّـرَى إقْـدَامُهَـا وَنِـزَالُهَا

قوله : نِهالا يريد أنها قد وَرَدَت الدَّمَ مـرة ولم تُثَنَّ ، وذلك أن النـاهلَ الذي يَشْرَبُ أول شَرْبةٍ ، فإذا شَرِبَ ثـانية فهـو عال ، يقـال : سَقَاهُ عَـلاً بعـد نَهْلٍ وعَلَلا بَعْدَ نهل ، وفي المثـل « سُمْتَه سَـوْمَ عالـةٍ » إذا عَرَضْت عليه عَرْضـاً يستحي من أن يُقْبلَ معه ، والعالَةُ لا حاجة بها إلى الشُّـرْب ، وإنما يُعْرَضُ عليها تَعْزيزاً . قال · وأَسْبَابُ المَنَايَا نِهالَها ، أي أول مـا يقع منها يكون سببا لما بعده .

وأنشدني غير واحد :

وَأَنَّ أَشِدَّاءَ الرِّجَالِ طِيَالُهَا

وليس هـذا بالجَيِّـد ، وإنما قَلَبتُ الـواوَ ياءً لـوقوعهـا بين كسـرة وألف

كقولهم : ثِباتٌ وحِياضٌ ، وسِياطٌ ، والواحد ثَوْبٌ ، وحَوْضٌ ، وسَوْطٌ . وهذا جيد ، لكون الواو في الواحد ، فأما في مثل طوال ، فإنما يجوز على التشبيه بهذا ، وليس بجيد لتحرك الواو في الواحد .

وأنشدني مسعود ابن بشر المازني :

لَهُمْ أَوْجُهٌ بِيضٌ حِسَانٌ وَأَذْرُعٌ طِيَالٌ وَمِنْ سِيما المُلوكِ بِخَارُ

ومجاز هذا في النحو على ما وصفتُ لك .

والعرب تَمْدَحُ بالطول ، وتَضَعُ من القِصَرِ ، فلا يَذْكُره منهم الا مُحْتَج عن نفسه ، ولا يمدَحُ به غَيْرَهُ .

[ص ٩١ - الكامل - جـ ١ ، دار نهضة مصر] .

النص الثالث
الفتوى فيمن أصاب صيداً وهو مُحْرِمٌ

وجاء في الحديث أن رجلاً أعرابيا أتى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني أَصَبْتُ ظَبْياً وأنا مُحْرِمٌ . فالتفت عمرُ إلى عبد الرحمن بن عَوْفٍ ، فقال : قل . فقال عبدُ الرحمن ، يُهْدِي شَاةً ، فقال عمرُ : أَهْدِ شَاةً ، فقال الأعرابي : والله ما دَرَى أميرُ المؤمنين ما فيها حتى اسْتَفْتَى غَيرهُ ، فَخَفَقَهُ عمرُ رضوانُ الله عليه بالدُّرةِ ، وقال : أَتَقْتُل في الحُرَمِ وتَغْمِصُ الفُتْيا ! إنَّ الله عز وجل قال : يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ مِنْكم ، فأنا عمرُ بن الخطاب ، وهذا عبدُ الرحمن بن عوفٍ .

وفي هذا الحديث ضُروبٌ من الفقه ، منها ما ذكروا أنَّ عبد الرحمن بن عوفٍ قال أوَّلاً ، ليكون قولُ الإمامِ حُكْماً قاطعاً . ومنها أنه رأى أنَّ الشاةَ مثلُ الظَبيةِ ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : « فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » ، وأنه لم يسأله : أَخَطأً قتلته أم عمداً ؟ وجعل الأمرين واحداً .

ومنها أنه لم يسأله : أقتلت صيداً قبله وأنت مُحرِمٌ ؟ لأن قوماً يقولون : إذا أصابَ ثانيةً لم يُحكَم عليه ، ولكنّا نقولُ له اذهبْ فاتّقِ الله ، لقول الله تبارك وتعالى « ومن عادَ فينتقِمُ الله منه »

[ص ٩ ـ الكامل باب الخوارج منشورات دار الحكمة ـ دمشق] .

النص الرابع

وكان واصلُ بنُ عطاءٍ أحدَ الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغَ قبيحَ اللُّثْغةِ في الرّاءِ ، فكان يُخلِصُ كلامَه من الراء ، ولا يُفطَنُ بذلك لاقتداره وسهولة الفاظه .

ففي ذلك يقولُ شاعرٌ من المعتزلة ، يمدحُه بإطالته الخُطَبِ واجتنابِهِ الراء ، على كثرة تردُّدِها في الكلام ، حتى كأنها ليست فيه :

عَليمٌ بإبدالِ الحُروفِ وقامِعٌ لكِلّ خَطيب يغْلِبُ الحقَّ باطِلُهْ

وقال آخر :

وَيجْعَلُ البُر قمحاً في تَصَرُّفِهِ وخالَفَ الراءَ حتى احتالَ لِلشّعْرِ
ولم يُطِقْ « مطراً » والقولُ يُعْجِلهِ فعاذَ بالغَيْثِ إشفاقاً من المَطَرِ

ومما حُكي عنه قولُه . . وذَكَرَ بَشّاراً ، أمَا لهذا الأعمى المُكْتَني بأبي معاذٍ من يَقْتُلُه ! أما واللهِ لولا أنَّ الغيلةَ خُلقٌ من أخلاقِ الغاليةِ لبَعَثْتُ إليه من يَبْعجُ بَطنَه على مَضْجَعِهِ ثم لا يكونَ إلا سَدُوسيًّا او عُقيْليًّا .

فقال : هذا الأعمى ولم يقل بشاراً ولا ابن بُرْدٍ ولا الضرير ، وقال : من أخلاق الغالية ولم يقل المغيَرية أو المنصوريّة ، وقال : لبعثْت إليه ، ولم يقل لأرسلتُ إليه ، وقال : على مَضْجَعِهِ ، ولم يقل على فراشه ولا مَرْقَدِه ، وقال يَبْعَجُ ولم يقل : يَبْقرُ ، وذكر بني عقيل لأن بشاراً كان يتوالى إليهم ، وذكر بني سَدُوس لأنه كان نازلاً فيهم .

واجتناب الحروف شديدٌ .

[ص ٣٤ - الكامل - باب الخوارج - منشورات دار الحكمة - دمشق - ط . ثانية] .

النص الخامس

ولاية قطري بن الفجاءة على الخوارج ومبايعتهم له

قال أبو العباس : ثم إن الخوارج أداروا أمرَهم بينهم ، فأرادُوا تولية عُبيدة ابنَ هلال ، فقال : أدُلّكُم على منْ هو خيرٌ لكم مني ، مَنْ يُطاعِنْ في قُبُل ، ويَحْمي في دُبُر ، عليكم قطري بن الفُجاءَة المازني . فبايعوه ، فوقف بهم فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، امضي بنا إلى فارس فقال : إن بفارسَ عُمَرَ ابن عُبيد الله بن مَعْمَر ، ولكن نَصيرُ إلى الأهواز ، فإن خرجَ مُصْعَبُ بن الزبير من البصرة دخلناها . فأتوا الأهواز ، ثم ترفعوا عنها الى إيذَج (بلد بين خوزستان وأصبهان) . وكان المُصعب قد عَزم على الخروج إلى باجُمَيْرا (بلد دون تكريت) فقال لأصحابه : إن قَطَرياً قد أطَلَّ علينا ، وإن خرجنا عن البصرة دخلها فبعثَ إلى المهلب فقال : اكْفِنَا هذا العدوَّ ، فخرج إليهم المهلب ، فلما أَحَسَّ به قطري ، يمم نحو كرمان ، فأقام المهلَّبُ بالأهواز ، ثم كَرَّ قَطَرِيٌّ عليه وقد استعدَّ ، فكان الخوارجُ في جميع حالاتهم أحسنَ عُدَّة ممن يقاتِلُهم ، بكثرة السِّلاح ، وكثرة الدواب ، وحَصَانِه - الجُنَنِ - فحاربهم المهلب ، فنفاهم إلى رام هُرْمُزْ .

[ص ١٦٤ - الكامل - الخوارج - منشورات دار الحكمة - دمشق - ط . ثانية ١٩٧٢] .

العقد الفريد لابن عبد ربه

[٢٤٦ - ٣٢٨ هـ]

ابن عبد ربه ، هو أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي ، من مواليد قرطبة [٢٤٦ هـ - ٣٢٨ هـ] وكان جده الثالث حدير مولى لأمير الأندلس هشام بن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) ، وقد عاش ابن عبد ربه في قرطبة طوال حياته ، وكان مرتبطاً بالولاء لبيت الإمارة فيها كما كانت أسرته .

وكانت قرطبة مزدهرة في ذلك العصر بعلمها وفقهها وأدبها ، ساعد على هذا الأزدهار تلك المنافسة التي كانت محور السياسة بين المروانيين وخصومهم العباسيين والفاطميين .

وقد استطاع ابن عبد ربه أن يحسن الألمام بالثقافتين ، الدينية والأدبية وهما الثقافتان الغالبتان في أندلسه يومئذ . وفي قرطبة تتلمذ ابن عبد ربه ونقل عن أربعة من أعلام الثقافة في عهده هم : عثمان بن المثنى (١٧٩ - ٢٧٣ هـ) وبقي بن مَخْلَدَ (٢٠١ - ٢٧٦ هـ) ومحمد بن الحارث الخُشَني (٢١٨ - ٢٨٦ هـ) ومحمد بن وضاح [١٩٩ - ٢٨٦ هـ] .

وفي بلاط الإمارة عاش ابن عبد ربه شاعراً ونديماً ومولى خاصاً بأمرائه الذين هم مصدر نعمته وجاهه ، فكان مثلاً قوياً للنهضة في هذه الأمارة بمحاسنها ومعايبها . كان فقيها دارساً كما يصفه المترجمون مثل ابن خلكان في وفياته وغيره من كتاب الإعلام ، كما كان صاحب لهو يطرب ويشرب ويعشق .

وقد ساعدته ثقافته المتسعة هذه وحسه وتذوقه للغناء والشعر الى أن يكون أمثل نديم في بلاط الأمراء ، وهكذا كان ابن عبد ربه نديماً باخلاقه ومزاجه نديماً بأصله وبيته ، نديماً بثقافته وعلمه .

وقد ترك ابن عبد ربه ديوان شعر في نيف وعشرين جزءاً ، ولكنه ضاع ، ولم يتبق من شعره الا ما ذكره في عقده وهو شعر يغلب عليه التكلف وبراعة العرض والتنميق .

اما نثره التأليفي فجيد سليم من معايب الزخرف الذي ساد شعره ولم يصلنا من تأليفه النثري سوى كتاب العقد الفريد ، وان كان صاحب كشف الظنون « حاجي خليفة » يذكر له مؤلفا آخر اسمه « اللباب في معرفة العلم والآداب » ، وإن كان المرجح أن هذا الكتاب إن هو الا الفصل المعنون في العقد بعنوان « الياقوته في العلم والآداب » .

وكتاب العقد الفريد له أهميته في كتب المصادر الأدبية العربية ، حيث يمثل في حياتنا الثقافية والأدبية المرتبة التي تلي كتابَ الأغاني ، فهو أشبه ما يكون بدائرة معارف صغيرة تزخر بمتطلبات الأديب في عصر ابن عبد ربه ، الذي يحرص على الإلمام من كل شيء بطرف .

هذا وقد تحدث الباحثون المحدثون بعد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي عن كتاب العقد الفريد لإبن عبد ربه ، ورأوا معه أن اسمه الحقيقي هو العقد ، وأن الفريد صفة لحقت بالكتاب بعد ذلك ، خاصة وأن المصدر الوحيد الذي أورده منعوتا بهذه الصفة هو « المستطرف من كل فن مستظرف » للابشيهي . وإن كنا لا نستبعد أن يسمى ابن عبد ربه عقده بالفريد فالمؤلفون درجوا آنذاك على مثل هذه التسميات ، فهناك يتيمة الدهر للثعالبى (ت ٤٢٩) وزينة الدهر للوراق (ت ٥٦٨ هـ) وخريدة القصر للأصفهاني (ت ٥٩٧) وغيرها كثير من الكتب التي تجري مجراه في المبالغة والتأنق .

هذا وقد نقل عن العقد وأفاد منه كثيرون ممن جاءوا بعده كالابشيهي في كتابه « المستطرف في كل فن مستطرف » ، وابن خلدون في تاريخه ، والقلقشندي في كتابه « صبح الأعشي » والبغدادي في كتابه « خزانة الأدب » وغيرهم .

كما اختصر العقد قديما أكثر من اختصار ؛ اختصره ابو اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن الوادي أشي القيسي (٥٧٠ هـ) . والثاني ابن منظور صاحب لسان العرب (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الخزرجي (٧١١ هـ) .

وفي العصر الحديث اختصرته لجنة من اساتذة دار العلوم عام ١٩١٣ وسمته « مختار العقد» . أما عن طبعات العقد ، فقد طبع عدة طبعات : طبع في مطبعة بولاق للمرة الأولى ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) وفي المطبعة العثمانية عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) وفي المطبعة الشرقية عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) ، وعام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨) ، وفي المطبعة الأزهرية عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) وفي المطبعة الجمالية ١٣٣١ هـ (١٩١٢) ، ونشره مصطفى محمد عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) ، ثم طبعته المكتبة التجارية لمصطفى محمد مرة ثانية بتحقيق محمد سعيد العريان عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م) وجاء في ثمانية أجزاء .

ولكن يؤخذ على هذه الطبعات جميعاً كثرة الأخطاء والعيوب ، إلى أن قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بطبعة طبعة علمية دقيقة بتحقيق الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري عام ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) .

هذا وقد تم حديثا اكتشاف عدد من مخطوطات العقد في مكتبات المغرب لم تكن معروفة من قبل ، الأمر الذي يجعل من المفيد اعادة تحقيق الكتاب في ضوء ما تتضمنه هذه المخطوطات من جديد .

وكتاب العقد الفريد في معظمه مختارات قام فيها ابن عبد ربه بالاختيار والتصنيف والتعليق أحيانا . وقد أكد المؤلف هذا في مقدمة كتابه حينما قال إنه قد اختار مادة هذا الكتاب من خير ما في الأدب ومن جوامع الكلم ، وأن دوره قد انحصر في « تأليف الأخبار ، وفضل الإختيار ،

وحسن الإختصار ، وفرش في صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من افواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء » وانه « نخل نظائر الكلام واشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ثم قرن كل جنس منها الى جنسه فجعله باباً على حدة » كما « تخير من جملة الأخبار وفنون الآثار ، أشرفها جوهراً وأظهرها رونقاً ، والطفها معنى وأجزلها لفظاً وأحسنها ديباجة واكثرها طلاوة وحلاوة » .

ولذلك تعددت مصادر هذا الكتاب وتنوعت خاصة وأن معظم مختاراته من التراث الأدبي للمشارقة ، وإن كان ابن عبد ربه لا يشير إلى هذه المصادر بل اكتفى بقوله أن جواهره قد أخذت « من أفواه العلماء ومأثور الحكماء والأدباء » ، الى جانب حذفه للأسانيد طلبا للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل ، كما ذكر في مقدمته ، كما انه قام بتوزيع مختاراته في أماكن متفرقة متصرفاً أحياناً في متونها ، الأمر الذي يصعب على الباحث ردها إلى مصادرها الأساسية .

وبرغم هذا نستطيع أن نتبين في العقد العديد من المصادر أهمها لإبن قتيبة كتب : عيون الأخبار ، وكتاب الأشربة ، وفضل العرب على العجم والشعر والشعراء . كما نرى تأثير مؤلفات الجاحظ خاصة المحاسن والأضداد والبيان والتبيين والبخلاء والحيوان وفضل قحطان على عدنان ، كذلك نرى تأثير كتابي المبرد « الكامل » و « الروضة » وكتاب الطبري تاريخ الأمم والملوك .

أيضا نستطيع أن نتعرف ـ ضمن مصادر ابن عبد ربه على كتاب « العروض » للخليل وكتاب المنثور والمنظوم لأحمد بن طيفور ، وطبقات فحول الشعراء لإبن سلام الجمحي و « الكتاب » لسيبويه ومؤلفات ابن المقفع ، وغيرها كثير خاصة من الكتب التي ترجمت الى العربية والتي اشتملت على مواد تاريخية للروم والعجم .

فالكتاب بهذا متعدد المصادر متنوعها ، ومن هنا كان الكتاب أغنى مؤرخاً لثقافة وحضارة المجتمع العربي نشأة وتطوراً خلال هذه الفترة التي تمتد حوالي أربعة قرون ، حتى إننا نجد في العقد نصوصاً لا نجدها في غيره من الكتب التي بين أيدينا لضياع الأصول التي نقلت عنها هذه النصوص أو لخفائها عنا .

وقد سمي ابن عبد ربه كتابه « العقد » وهي تسمية تنطبق على منهجه في تأليف كتابه . فقد قسم كتابه الى خمسة وعشرين فصلاً في خمسة وعشرين فنا ، وتصور موضوعاته الخمسة والعشرين متراصة في شكل عقد يحتوي على خمس وعشرين جوهرة ، اثنتا عشرة في جانب ، واثنتا عشرة في الجانب الأخر ، جاعلاً للعقد واسطة وهي « كتاب الواسطة في الخطب » ورتب الجواهر في كل جانب على هذا النحو : لؤلؤة - فريدة - زبرجدة - جمانة - مرجانة - ياقوتة - جوهرة - زمردة - درة - يتيمة - عسجدة - مجنبة .

وشملت هذه الكتب (الفصول) نظام الحكم ، والحروب ومدار أمرها والأجواد والأصفاد ، والوفود ومخاطبة الملوك ، والعلم والأدب ، والأمثال ، والمواعظ والزهد ، والتعازي والمراثي ، والنسب وفضائل العرب ، وكلام الأعراب ، والأجوبة ، والهدايا والفكاهات والملح ، والطعام والشراب ، وطبائع الإنسان وسائر الحيوان ، وتفاضل البلدان ، والمتنبئين والبخلاء والطفيليين ، والنساء وصفاتهن - وعلم الألحان واختلاف الناس فيه - وأعاريض الشعر وعلل القوافي - وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه - وأيام العرب ووقائعهم - وأخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة - والخلفاء وتواريخهم وأيامهم - والتوقيعات وأخبار الكتبة والخطب .

فالكتاب بهذا يشتمل على خمسة وعشرين قسماً كل منها في موضوع خاص وذلك بخلاف المقدمة التي حدد فيه ابن عبد ربه موضوع كتابه ومنهجه فيه كما رسم فيها خطة بحثه على نحو يشي بوضوح المنهج

والموضوع لديه ، وقدرته على الإحاطة والتصور ، حتى إننا نستطيع القول أن منهج ابن عبد ربه في كتابه هذا يعد من أفضل المناهج في التأليف الأدبي حتى عصره . . ويكفي أن نقرأ مقدمة المؤلف لنرى إلى أي حد نجح في عرض مؤلفه ومناقشة قضاياه مع وضوح في المنهج المستوعب لمادة كتابه المتنوعة في اتساعها . فبعد أن حمد الله وصلى على نبيه ، بدأ بتصوير الموقف العام الذي دفعه إلى هذا العمل توضيحاً لأهميته من ناحية وضرورة الحاجة اليه من ناحية أخرى ، فأشار إلى أنه قد لاحظ أن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب . . . وأن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته في اختصار بديع معاني المتقدمين ، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخير إلى اختيار » .

لقد أدرك ابن عبد ربه بحسه النقدي خطورة كثرة المؤلفات الأدبية من حشد وشرح وتلخيص ، وما يمكن أن يؤديه هذا من بلبلة أشبه بتلك البلبلة التي أحدثتها كثرة المؤلفات النقدية في العصر الحديث حتى أدت إلى أزمة في المصطلح النقدي كما أشار ريتشاردز في كتابه مبادىء النقد الأدبي . ومن هنا أدرك ابن عبد ربه الحاجة الماسة الى مؤلف يكون محك الإختبار بالنسبة للمؤلفات الأخرى . ويستطرد ابن عبد ربه موضحاً منهجه على نحو تذوق فيه على سائر مؤلفي عصره ، فيقول « ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحْصُول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الأختيار وحسن الإختصار وفرش (تمهيد) في صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء . . . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : وافد الرجل عقله . . . فتطلبت نظائر الكلام . . ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره في كل باب » .

ثم يشير المؤلف إلى أنه في اختياره هذا ، إنما يجري على وصايا القرآن الكريم وبعض العلماء ، باختيار الأحسن من الأقوال ، وإنه مع ذلك عرضة للذلل لأن الكمال لله وحده ، ومن ألف فقد استهدف للخصومة الا عند من يعد لون وقليل ما هم » .

وتحدث ابن عبد ربه عن موقفه من قضية الاسناد التي لم ير أهمية لإثباتها فقال « وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للإستخفاف والايجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ، ولا يضرها ما حذف منها »

وختم بيان منهجه من التأليف وخطته في رسم كتابه فقال « وقد نظرت في الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافيا شافيا جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور » .

وفي ختام هذه المقدمة الموفقة سرد ابن عبد ربه اسماء كتب العقد وأوضح أن موضوع كل كتاب من اسمه ، فكان سردها عن هذا النحو بمثابة فهرس .

ومع أن ابن عبد ربه نص على أن كتابه مختارات لا فضل له فيها الا فضل الاختيار وحسن الاختصار وفرش صدر كل كتاب الا ان العقد ليس مختارات فحسب ، وإنما يضم إلى جانب هذا قدراً لا بأس به من شعر ابن عبد ربه نفسه الى جانب بعض الفصول من تأليفه كالكتاب التاسع عشر وهو كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي ، وكذلك معظم الأبواب الأخبارية الخاصة بالأندلس ككتاب العسجدة الثانية في الخلفاء

ونواريخهم ، وكذلك احكامه النقدية الكثيرة المنتشرة هنا وهناك ، كنقده لإبن قتيبة في رأيه في الشعوبية ، ونقده للمبرد في بعض مختاراته الشعرية .

وبهذا كله استحق كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه أن يكون مصدراً هاماً من مصادر التراث العربي بما تميز من وفرة في المادة ومن تنوع في الموضوعات .

مصادر ومراجع :

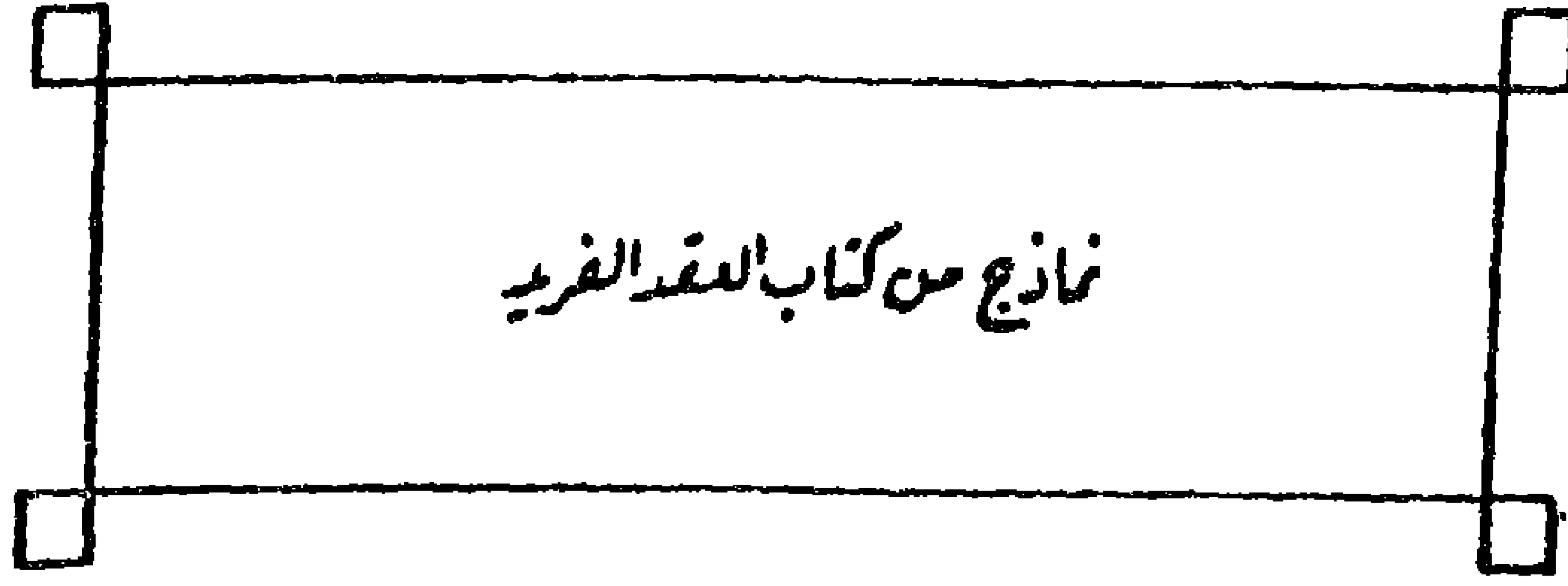
١ ـ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس .

٢ ـ الثعالبي : يتيمة الدهر .

٣ ـ جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .

٤ ـ الطاهر أحمد مكي : العقد الفريد لأبن عبد ربه (مقال ـ مجلة الهلال ـ ديسمبر ١٩٧٥) .

٥ ـ محمد خليفة التونسي : العقد الفريد لابن عبد ربه (دراسة ـ مجلة تراث الإنسانية ـ المجلد الثاني ـ العدد ١) .



النص الأول ———————— ملاحظات نقدية .

قال المبرد مخاطبا الأديب :

« واعلم أنه لا يصلح لك شيء من المنثور والمنظوم الا أن يجري منه على عرف ، وأن يتمسك منه بسبب .

فأما إن كان غير مناسب لطبيعتك وغير ملائم لقريحتك ، فلا تُنْض مطيتك في الناس ولا تتعب نفسك الى ابتغائه باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم ، فإن ذلك غير مثمر لك ، ولا مجد عليك ، ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك .

واعلم أن من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه ، واستضاءته بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة غيره ، ولم تكن معه أداة تولد من بنات ذهنه ونتائج فكره الكلام الحزم والمعنى الجزل - لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير ولا ورد ولا صدر . على أن كلام الفصحاء المطبوعين ودرس وسائل الشعر من المتقدمين هو على كل حال مما يفتق اللسان ويقوي البيان ويحد الذهن ، ويستمد الطبع ، إن كان فيه بقية ، وهناك خبية » .

———— تعليق ————

في هذه الملاحظات النقدية تبدى براعة ابن عبد ربه النقدية وحسه الفني الصادق وليد خبرته وثقافته التي استوعبها خلال اعوامه السبعين عندما ألف كتابه .

فيتناول قضية الخبرة الفنية والتي تعتمد أول ما تعتمد على المعرفة بأسرار الصنعة للعمل الأدبي والاحاطة بها وهضمها ، حتى يكون تمثلها بعد ذلك في عملية الخلق تمثلاً طبيعياً لا نستشعر معه التصنع أو التكلف .

وابن عبد ربه يدرك جيداً أن الفن ليس استحداثاً من العدم ، وإنما هو مجموعة مستوعبات تشكلها خبرة الفنان وموهبته معاً ، وأن جزءا كبير من خبرة الفنان يرجع إلى ثقافته ودراسته لأسرار فنه من نتاج غيره من المتقدمين ، على أن هذه الثقافة وتلك الخبرة تصبح عديمة الجدوى في عملية الخلق الفني ما لم يتوافر للفنان موهبة أصيلة لديها القدرة على الهضم والاستيعاب والخلق .

النص الثاني

فرش كتاب الحروب

« ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها ، وقَوْدِ الجيُوش وتدبيرها ، وما على المدُبِّر لها من إعمال الخِدْعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغِرّة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات . هذا بعد معرفة احكامها ، واحكام معرفتها ، وطول تجربته لمقاساة الحروب ومُعاناة الجيوش ، وعِلْمه أن لا دِرْع كالصبر ، ولا حِصْن كاليقين . ثم نذكر كرمَ الإقدام ، ومحمودَ عاقبته ، ولُؤْمَ الفرار ، ومَذْمُوم مَغبته . والله المُعين .

صفة الحروب

الحربُ رَحًى ثِفالها الصَّبْر وقُطْبها المَكْر ، ومدَارها الاجتهاد ، وثقافها الأناة ، وزمامها الحذَر . ولكل شيء من هذه ثمرة ، فثمرة الصبر التأييد ، وثمرة المكر الظفَر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن ، وثمرة الحذر السلامة .

ونكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال ، والرأي فيها أبلغ من القتال

قال عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] لعمرو بن معْد يكرب : صِفْ لنا الحرب ، قال : مُرة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عُرِف ، ومَن نكلَ عنها تَلِف . ثم أنشأ يقول :

الحـرْب أوَّل مـا تكـونُ فَتيـة ... تسعى بـزينتهـا لـكـل جَهُـول
حتى إذا حميت وشبّ ضِـرَامهـا ... عـادت عجـوزاً غـير ذات خليـل
شمطاء جُزَّت رأسهـا وتنكـرت ... مَكْـروهـةً للشَّـمِ والتَّـقْبيـل

وقيل لعَنْترة الفوارس : صِفْ لنا الحرب . فقال : أوّلها شَكْوى ، وأوْسطها نَجْوى ، وآخرها بَلْوى .

[٩٣ ـ ٩٤ ـ العقد الفريد ـ جـ ١ ـ لجنة التأليف والترجمة ـ ط . ثانية] .

النص الثالث

« قيل لأبي عمرو بن العلاء : أيّ بيت تقوله العرب أشعر ؟ قال : البيت الذي إذا سمعه سامعُه سولت له نفسُه أن يقول مثله ، ولأن يُخدَش أنفُه بظفر كلب أهونُ عليه من ان يقول مثله .

وقيل للأصمعي : أي بيت تقوله العرب أشعر ؟ قال : الذي يُسابق لفظُه معناه .

وقيل للخليل : أي بيت تقوله العرب أشعر ؟ قال : البيت الذي يكون أوله دليل مَا فيه .

وقيل لغيره : أي بيت تقوله العرب أشعر ؟ قال : البيتُ الذي لا يَحجبُه عن القلب شيء . وأحسن من هذا كله قول زُهير :

وإن احسن بيتٍ أنت قائلُه   بيتٌ يُقال إذا أنشدتَه صَدَقا

[٣٢٦ - العقد الفريد - جـ ٥ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٦٥] .

تعليق

في هذه الفقرة يعرض ابن عبد ربه لبعض وجهات النظر في مفهوم الشعر ، ثم يعقب على هذا بما يفيد وجهة نظره .

والملاحظ على هذه الآراء التي حشدها ابن عبد ربه أنها تمثل وجهات نظر مختلفة ومتباينة وفقاً لخبرة صاحبها الثقافية وقدرته على التذوق .

فأمامنا وجهة نظر راوية أخبار وأشعار هو أبو عمرو بن العلاء ووجهة نظر لغوي هو الأصمعي ووجهة نظر عروضي هو الخليل ، ووجهة نظر عامة ، ثم وجهة نظر ابن عبد ربه وهي هنا وجهة نظر ابن عبد ربه الشاعر .

فأبو عمرو بن العلاء يرى أن أحسن الشعر هو ما ترى فيه نفسك حتى تتمنى لو صنعت مثله ، فإذا حاولت أخفقت . إنه التعبير التلقائي عن حس الإنسان بالانسان . وهي نظرة تتناسب بطبيعة الحال مع ناقد توافر لديه حس الفطرة ، وإلى جانب التمرس بالنماذج الأدبية من خلال الحفظ والرواية .

أما عبارة الأصمعي فمع غموضها ، تشير إلى أهمية المعنى أو المضمون عنده في العمل الشعري ، وهذا طبيعي من ناقد يهتم بالدلالات في اللغة وبالحرص على الارتباط بين اللفظ والمعنى في التعبير الشعري .

ورأى الخليل هنا رأيي يستند على ثقافته كرجل معن بالكلمة كصوت ، وبالتركيبة الموسيقية في البناء الشعري ، ولذلك حدد موقفه من

الشعر وفقا لخبرته الأساسية ، فالذي يهمه كعروضي هو الإنسياب الموسيقي في البناء الشعري .

وفي النهاية يسوق ابن عبد ربه رأياً من الواضح من اختياره انه راي وافق منه قبولاً واستحساناً ، وهو راي يتفق في كثير مع راي ابو عمرو بن العلاء ، ومع راي زهير الذي يعتمده ابن عبد ربه . إن الشعر صوت انساني خرج من قلب انسان ليصل إلى قلب انسان . وهذا هو مفهوم الصدق الذي عناه زهير في قوله .

النص الرابع
الاستعارة

« لم تزل الإستعارة قديمة تُستعمل في المنظوم والمنثور . وأحسن ما تكون أن يُستعارَ المنثور من المنظوم ، والمنظوم من المنثور . وهذه الإستعارة خفية لا يؤبه بها ، لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال . وأكثر ما يجتلبه الشعراء ويتصرف فيه البلغاء فإنما يجري فيه الآخر على سنن الأول . وقل ما يأتي لهم معنى لم يسبق إليه أحد ، إمّا في منظوم ، وإما في منثور ، لأن الكلام بعضه من بعض ، ولذلك قالوا في الأمثال ، ما ترك الأول للآخر شيئاً . الا ترى أن كعب بن زُهير ، وهو في الرُعيل الأول والصدر المتقدم ، إذ قال :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مَكروراً

ولكن في قولهم إن الآخر إذا أخذ من الأول المعنى فزاد فيه ما يُحسنه ويُقرِّبه ويوضحه فهو أولى به من الأول ، وذلك كقول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأُخرى تداويت منها بها

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هانئ فحسنه وقرّبه إذ قال :

دعْ عنك لومي فإنّ اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداءُ

[٣٣٨ ـ العقد الفريد ـ جـ ٥ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥] .

تعليق

الاستعارة هنا كما استخدمها ابن عبد ربه ، تعني أخذ الشاعر أو الكاتب الأفكار والصور والتركيبات . من شعر ونثر غيره واستخدامها في أعماله الأدبية . وهي القضية التي شغلت النقاد العرب كثيراً فيما عرف بالسرقات الشعرية .

ويسوق ابن عبد ربه قولاً لكعب بن زهير يدلل به على أنه لا جديد على الأرض وكل ما يقال إنما هو بتعبير ابن عبد ربه سير على سنن الأول .

ولكننا نلمح في عبارة ابن عبد ربه هذه قدراً كبيراً من التسامح ، وقدراً كبيراً أيضاً من حسن الفهم والإدراك الفني ، فهو يرى أن الآخر إذا أخذ من الأول فزاد فيه ، أو بلغة العصر فأضفي عليه من حسه الخاص ما يجعله شيئاً آخر ، ورؤية أخرى ، فهو أولى به والأول .

وعلى العموم فالعبارة هنا تشي بالتداخل بين تأثير الموقف النقدي الذي كان سائداً في عصر ابن عبد ربه ، والحس الفني الموجود بداخله كشاعر قبل كل شيء .

الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني

٢٨٤ - ٣٥٧ هـ

أبـو الفرج الأصفهـاني أو الأصبهاني ، هـو علي بن الحسـين بن محمـد وينتهي نسبه الى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فمـروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي .

ولد أبو الفرج الأصبهاني في عـام ٢٨٤ هـ في خلافـة المعتضد بـالله ، وفي هذا اختلاف بـين عدد من الـذين أرخوا لـه حيث ذهبت بعض الآراء الى أنه ولد بمـدينة (سُرَّ مَنْ رأى) حيث كانت تقيـم أسـرته من جهـة أبيه وأسرته من جهة أمه ، وتوفى على اختلاف بين الآراء كذلك فيما بين أعـوام ٣٥٧ و ٣٦٠ هـ .

وتـذكر كتب الـرواة التي أرخت لحياة أبي الفـرج الاصفهـاني ككتـاب معجم الأدبـاء لياقـوت والفهرس لابن النـديم وتاريـخ بغداد للخـطيب ، واخبار اصبهان لابي نعيم ، ان لقب أبي الفرج الأصفهاني أو الأصبهاني قد ورثه عن أسرته حيث كانت أصبهان هي الموطن الذي استقر فيه بعض الأمويين بعد انتهاء دولتهم . كما تذكر كتب الرواة كذلك ان أبا الفرج قد نشأ في الكوفة وتعلم على يد محمد بن الحسين الكندي وأحمد بن محمد السعيد الهمزاني والمقافعي والبلخي . وكانت الكوفة آنذاك (نهاية القرن الثالث الهجري) بيئة المجان من المغنين والشعراء ، مما كان له تأثيره القوي في اتجاه أبي الفرج الى الاهتمام بالمجانة وفن الغناء وما يتعلق به . ثم انتقل أبو الفرج بعد ذلك الى بغداد حوالي سنة ٣٠٠ هـ ، وهناك اهتم بدراسة الأدب واللغة والتاريخ ، وأخذ هذه العلوم عن مشاهير شيوخ عصره ومنهم الأخفش ، وابن الانباري وابن دريد ، ونفطويه . كذلك اهتم أبو الفرج كما تروي كتب الرواة خاصة كتاب تاريخ بغداد ان

أبا الفرج الأصفهاني اهتم بمجالس المغنين والندماء في قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، ومن هذه المجالس استمد أبو الفرج ثقافته الواسعة في الموسيقى والغناء كما اثرت فيه هذه المجالس بلا شك في اهتمامه بالتأليف في هذه الفنون .

وقد استطاع أبو الفرج الأصفهاني أن يكون في هذه البيئة نموذجا للمثقف الموسوعي على نحو ما وصفه به ياقوت الحموي حين قال عنه إنه (العلامة النساب الأخباري الحفظه ، الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة . . . . . . كان يحفظ من الشعر والأغاني والاخبار والاثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم أر من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والمغازي والسير وغير ذلك) .

وقد ذكرنا من قبل ان الكوفة حينما رحل اليها أبو الفرج كانت بيئة المجان والخلعاء من المغنيين والشعراء ، فقد استقر فيها الغناء قبل أن يستقر ببغداد كما كان عمر بن أبي ربيعة يلم بها ليسمع غناء قينتين حاذقتين لصاحب ابليس عبد الله هلال كما يذكر أبو الفرج في كتابه الأغاني . وبالكوفة كان اسحاق الموصلي الذي يعد كما لاحظ عدد من الباحثين من أهم الشخصيات التي أثرت في تكوين أبي الفرج الأصفهاني .

وفي الكوفة كذلك كانت الخمارات والحانات وما يتصل بها من لهو وعبث . وبالرغم من أن أبا الفرج عاش بالكوفة في فترة حداثة سنه ، فإنه من الطبيعي أن تترك هذه البيئة ومؤثراتها آثارها الواضحة في تكوين شخصية أبي الفرج وحياته العقلية والخلقية . أما بغداد التي كانت عاصمة الدولة ، والتي حصل فيها أبو الفرج الجزء الأكبر من ثقافته وعلمه فقد كانت في هذه الفترة (بداية القرن الرابع الهجري) مسرحا لبيئات ثقافية وصلت الى مرحلة عالية من العلم والمعرفة ، كما كانت تمتلىء بقصور الأمراء والوزراء وكبار الأثرياء الذين كانوا يحيون في ثراء ورفاهية ، حياة

يختلط فيها العبث والمجون بمجالس الثقافة والأدب

وفي بغداد اهتم أبو الفرج بدراسة الأدب واللغة والتاريخ ، فأخذ عن مشاهير شيوخ عصره ، ومنهم : ابن دريد وابن الانباري والاخفش ونفطويه والطبري . كما اهتم بما يجري في مجالس المغنين والندماء في قصور الخلفاء والوزراء والأمراء والأثرياء ، ومن هذه المجالس كانت ثقافة أبي الفرج الواسعة في الموسيقى والغناء ، وكانت عنايته من ثم بالتأليف عن هذه الفنون .

فأبو الفرج الأصفهاني اذن نموذج للمثقف الموسوعي ، وهذا ما نجده في ترجمة من ترجم له من كتاب السير والتراجم . فيصفه ياقوت الحموي في معجم الادباء بانه « العلامة النساب الاخباري الحُفَظَة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة ، لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها ، وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك شاعراً جيداً . . . قال التنوخي : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني ، كان يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أرقط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر ، منها اللغة والنحو والخرافات ، والمغازي والسير ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والأشربة وغير ذلك ، وله شعر يجمع اتقان العلماء وإحسان طرفاء الشعراء » .

وأبو الفرج الاصفهاني برغم انتمائه الى بني امية الى انه كان متشيعاً ، ورث تشيعه عن أسرته لأمه ، الى جانب ان المحن السياسية التي تعرض لها الامويون والطالبيون على يد العباسيين قد جمعت بينهما وخلقت شيئاً من التعاطف ، فنراه يؤلف كتاباً عن « مقاتل الطالبيين » سنة ٣١٣ هـ . غير ان أبا الفرج لم يكن في الواقع صاحب اهتمامات لمذهب عقائدي يعمل له فخلاقه اقرب الى خلاق النديم ، ومن هنا كان تشيعه كما لاحظ عدد من الباحثين تشيع الميل الموروث .

ولأبي الفرج العديد من المؤلفات في شتى المعارف ذكرها ابن النديم في الفهرست ونذكر منها الى جانب كتاب الاغاني .

كتاب مجرد الاغاني ، وكتاب اخبار القيان وكتاب الديارات وكتاب الأخبار والنوادر وكتاب الخمارين والخمارات وكتاب أخبار الطفيليين وكتاب جمهرة انساب العرب وكتاب في النغم ورسالة في الاغاني .

أما الاغاني فهو باجماع الباحثين أضخم موسوعة خبرية ، جمع فيها مؤلفها عدداً هائلاً من الأخبار المتعلقة بموضوعه الرئيسي . فيقول عنه ابن خلدون في مقدمته انه « ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال، ولا يعول به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وأنّى له بها » .

ويؤرخ هذا الكتاب للشعر العربي الذي غناه المغنون حتى عصره ونسبة كل شعر الى صاحبه وصانع لحنه وطريقته من الايقاع والاصبع الذي نسب اليه ولون الطريقة ونوع الصوت وكل ما يتصل بذلك .

وأساس الغناء المختار في الاغاني هو المائة صوت التي اختارها ابراهيم الموصلي للخليفة هارون الرشيد .

ولم يقتصر أبو الفرج على هذا ، بل انه اتبعه بذكر الاصوات وأبعادها وطرائقها ، كما اتبع ذلك ذكر ما يتصل باخبار المغنين والشعراء والملوك مصوراً فيها الحياة الاجتماعية والثقافية لكل طبقة .

ومن خلال ذلك قدم أبو الفرج في كتابه مادة اخبارية واسعة ضمت النسب واخبار الوقائع والحروب وايام العرب ووقائعها وذكر اخبارهم والغزوات وأخبار الفتوح .

ومنهج أبي الفرج من هذا أنه يبدأ بذكر الصوت المختار والشعر

المتصل به ، ثم يستطرد الى ذكر اشعار أخرى تغنى بها وقيلت في نفس المعنى . ثم يتحدث عن المناسبة التي قيلت فيها الأشعار وما يرتبط بها من ظروف ذات دلالات اجتماعية او سياسية ، وما يتصل بها كذلك من ذكر للانساب والسير والاشعار والقصص والنوادر . وما يوضحها من أخبار وتراجم . لهذا كان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني موسوعة في اخبار الأدب العربي ، حشده المؤلف بكل ما يتصل بهذا الأدب حتى ما كان يراه مكذوباً .

والملاحظ على كتاب الاغاني ان المؤلف لم يعتمد في تأليف كتابه على قاعدة فنية أو تاريخية في عرضه وتصنيفه للأصوات أو الغناء ؛ وقد أدرك أبو الفرج هذا ، فقال مدافعاً عن مسلكه هذا « ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء او على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم ، أو على ما غن به من شعر شاعر »، ثم رأى أن الباعث له على هذا علل منها ان شعراء الاصوات المختارة من المتأخرين وحينئذ فلا مفهوم للعرض التاريخي . ومنها ان الأغاني في أغلبها فيها اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة مما لا يمكن معها ترتيبها على الطرائق والأسس الفنية . كذلك فانه لو وقف كما يقول عندما « غنى به من شعر شاعر منهم ولم نتجاوزه حتى نفرغ منه لكانت للنفس عنه نبوة وللقلب منه ملة . وفي طبع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء » .

ولهذا رأى ان يكون منهجه في عرضه لمادة كتابه على النحو الذي أوضحناه من قبل ليكون أحسن للقارىء وذلك « بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ، ومن أخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه » ، وقد ترتب على هذا الاتجاه بعض المآخذ التي يمكن ان توجه الى أبي الفرج ، ومنها كثرة التكرار الذي جاء نتيجة تكرار المناسبة مع الاصوات واضطرار أبي الفرج الى العودة الى الكلام عن الشخص او الموقف في المناسبات المرتبطة بهذه

الاصوات . ومنها تبعثر المادة المتصلة بالشعراء وغيرهم حيث عرض أبو الفرج خياة من تناولهم في مناسبات مبعثرة مع الاصوات . اما بالنسبة للمادة التي جمعها أبو الفرج في كتابه ، فقد كثر الحديث حولها ، واتهمه أغلب الباحثين بانه يجمع بين الغث والسمين والصادق والكاذب .

ولكن يبدو أن أبا الفرج قد اندفع الى هذا بسبب حرصه على تسجيل كل ما يتعلق بالخبر من روايات وأخبار وتعليقات دعماً لمادة كتابه ، فهذه المادة كما قدمها أبو الفرج تصور كل ما يتصل بالخبر من صدق وكذب ، خاصة وأنه كثيراً ما كان يورد الخبر ولا يصدقه ، بل يدلل على ما ينقضه وينقصه . ، كما عقب على خبر لابن خرداذبة عن معبد بقوله « وابن خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويُضمِّنه كتبه » ثم يأخذ في ذكر الصحيح من وجهة نظره .

وأبو الفرج من هذه الناحية صاحب منهج في التوثيق والنقد وبصر بالنقد التاريخي . فإلى جانب شكه في بعض الروايات وتصحيحه لها نجده حريصا في نقله للاخبار عن الكتب والشيوخ بالالتزام والمحافظة حتى على صورة الألفاظ ، بل إنه عندما كان يقوم باختصار الاخبار والتعبير عنها من عنده كان ينص على كمال المعنى منبها القاريء الى ذلك .

ومن الواضح أن ابا الفرج قد استمد مادة كتابه من الروايات والاخبار عن مصدرين أساسيين هما المؤلفات السابقة والمعاصرة له والشيوخ الذين كانوا يعتمدون على مجهودات السابقين من الرواة ، وقد لاحظ ابن النديم بصدد ترجمته لأبي الفرج أن أكثر رواياته إنما أخذت عن الكتب ولم تؤخذ عن الرجال .

كما اشار الدكتور محمد احمد خلف الله بصدد حديثه عن مصادر كتاب الاغاني الى ان ابا الفرج قد اعتمد على كتب ليست كلها من الاصول الجياد أو من الكتب الامهات وعلى شيوخ ليسوا جميعا من الرواة

الممتازين . ومن الشيوخ الذين اعتمد عليهم أبو الفرج الاصفهاني في مروياته ، محمد بن جرير الطبري ، ومحمد بن القاسم الأنباري ، ومحمد بن العباس البازيدي ، وعلي بن سليمان الاخفش ، والفضل بن الحباب الجمي ، وابن دريد ، وابن عماد ، ونفطويه ، واحمد بن سعيد الهمزاني ، وعلي بن العباس الكوفي ، وحرمي بن أبي العلاء ، وغيرهم . وهؤلاء رواة ثقاة بل من شيوخ الرواة كما وصفهم الدكتور خلف الله نفسه . ولهذا لا يعيب الرجل إيراده لعدد من الروايات لرواة ضعاف خاصة وانه يحرص على مناقشتها بل على النص على انها ضعيفة كما لاحظنا من قبل ، وخاصة

وانه كراوية كان حريصا على جمع كل ما قيل حتى ولو لم يكن مروياً عن شيوخ ممتازين ، وبهذا نستطيع أن نصف أبا الفرج في هذا الصدد بانه من الرواة الذين يحرصون على جمع كل ما قيل تمثلا للحياة الفكرية والاجتماعية ، خاصة وأنه كما يبدو من المؤلفات التي ألفت حول الرواة انه كانت هناك نظرة تساهل بالنسبة لمرويات الإخباريين وعدمَ التدقيق في مروياتهم على نحو ما يجري الأمر بالنسبة لأخبار الرجال وأخبار الأحاديث . لكن لا أعتقد في ضوء منهج أبي الفرج في مناقشة مروياته ان الرجل كان يلجأ الى الاخبار المصنوعة رواية وتأليفا ويُعتمد عليها اعتمادا كليا على نحو ما ذكر الخطيب في تاريخ بغداد حينما قال (حدثني ابو عبيد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طباطبا العلوي قال : سمعت ابا محمد الحسن بن الحسين النوبختي يقول : كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشري شيئا من الصحف يحملها الى بيته ثم تكون روايته كلها منه) .

ولكن ينبغي أن نأخذ الأمر في كتاب كهذا على نحو آخر ، فحتى لو أن هذه الأخبار أخبار مصنوعة ، فهي بلا شك مصنوعة على غرار أخبار مشابهة ، وقد كانت مقبولة لدى جيل أبي الفرج ، وهي على أية حال

اخبار قُصد منها كما أعتقد تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية بوجه عام .

دكر أبو الفرج في مقدمة كتابه أنه سوف يصنف كتابه (ابوابا على طرائق الغناء او على طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم او على ما غنى به من شعر الشاعر) .

ويعلل هذا المنهج بانه الاوفق لمزاج القاريء ، حتى لا يتسرب الملل الى نفسه ، وذلك بالانتقال (من خبر الى غيره ومن قصة إلى سواها ومن اخبار قديمة إلى محدثه ومليكه إلى سوقه وجد الى هزل) وهذا انشط لقرائه واشهى لتصفح فنونه .

وقد ترتب على هذا كثرة التكرار الذي جاء نتيجة تكرار المناسبة مع الأصوات ، كما أدى الى تبعثر المادة المتصلة بالشعراء ، حيث عرض أبو الفرج لحياتهم في مناسبات متبعثرة مع الأصوات التي هي مدار كتابه ، وبهذا صار الموضوع الواحد مُجزءاً إلى موضوعات متعددة. فنراه يقول وهو بصدد حديثه عن بشار (ولبشار أخبار كثيرة قد ذكرت في عدة مواضع منها أخباره مع عبدة ، فإنها أفردت في بعض الشعر الذي غنى فيه المغنون ، وأخباره مع حماد عجرد في تهاجيهما فانها ايضا افردت وكذلك اخباره مع ابي هاشم الباهلي فإن لم نجمع جميعها في هذا الموضع إذ كان كل صنف منها مستغينا بنفسه) .

واحيانا نراه يشير الى ما سوف يأتي في الكتاب من أخبار لم يذكر عنها شيئا بعد كقوله (وأخبار ابن أذينه تأتي بعد هذا في موضع إن شاء الله) .

ويسبب تداخل المرويات وانتقال أبي الفرج فيها من موضوعات إلى موضوعات كان يحرص حينما يستطرد إلى موضوع ثانوي أن ينبه بعد. انتهاء الموضوع الثانوي إلى العودة الى الموضوع الأساسي فنرى عنده هذه العبارة (رجع الحديث الى سياقه) .

فأبو الفرج في تصنيفه لمروياته إذاً لا يصنفها على أساس المسانيد ولا على أساس السنوات ، وانما يصنفها على أساس الموضوعات التي حددها في مقدمة كتابه بأنها ذكر الأصوات المختارة ، وقد أشار هو إلى ذلك في قوله في المقدمة (ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبوابا على طبائق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم ، أو على ما غنى به شعر شاعر ، والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل منها أن لما جعلنا ابتداءه الأصوات المختارة كان شعراؤ ها من المهاجرين والأنصار وأولهم ابو قطيفه وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول ، ثم عمر بن أبي ربيعه ثم نصيب ، فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ، ولم يكن ترتيب الشعراء فيه الحق اوله بأخيره وجعل على نسب ما حضر ذكره وكذلك سائر المئة صوت المختارة ، فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين وليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وإنما المغزى فيه ما ضمن من ذكر الأغاني باخبارها ، وليس هذا مما يضر بها) .

فأبو الفرج إذاً قسم كتابه تقسيما بحسب الموضوعات ، وقد ذكرت من قبل كيف أن نهج أبي الفرج هذا في عرضه لمروياته قد أوقعه في عدد من المعايب منها تجزئة توزيع المرويات والأشخاص، ومنها تكرار المرويات في أكثر من مناسبة ، وربما كان هذا هو السبب في قيام العديد من الأدباء بعده قديما وحديثا بتهذيب الكتاب واختصاره وتنقيته من هذه المعايب .

والملاحظ على أغلب مرويات ابي الفرج انها مؤداة بنفس الالفاظ والمعاني التي كانت عليها في الكتب التي نقل عنها ابو الفرج ، وقد لاحظ هذا الدكتور خلف الله بمقابلة مرويات ابي الفرج بما جاء في تاريخ الطبري وفي النقائض .

وإن كان هذا لم يمنع من أن نرى ابا الفرج في بعض الأحيان يذكر الاخبار مختصرة وبالفاظ من عنده وقد نص هو على هذا ، وهذه امانة

علمية منه ومن ذلك قوله (فجمعت من روايتهم ما احتاج الى ذكر مختصر اللفظ كامل المعنى).

وقد حاول أبو الفرج أن يشرح الغامض من ألفاظ روايته ومفرداتها خاصة فيما يتصل بالشعر ، وكان يخرج بهذا المنهج عن أسلوب الرواية المحضة الى الشرح الأدبي واللغوي ، والى استخدام حس الأديب الناقد وقدرته على التذوق ، وهذا مضطرد في أخباره ومروياته ، كما اهتم كذلك في مروياته بشرح الالفاظ الاجنبية التي دخلت الى العربية نتيجة امتزاج الحضارة العربية مع غيرها من حضارات الشعوب المجاورة ، ومن ذلك قوله في تفسير البيت التالي : ـ

« إذَا قَالَ لِي يامَرْد مَى خَرْ » وكَرَّرها   علي وغَنَّاني فَرَاحاً بَصفْوَانْ

هذا كلام بالفارسية وتفسيره يا رجل اشرب النبيذ .

هذا ولكتاب الاغاني أهمية كبيرة عند باحثي الأدب العربي ودارسيه ، فهو الى جانب انه المصدر الوحيد والاساسي لتاريخ الغناء والمغنين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، فهو غني بأخبار الجاهلية والاسلام وبني امية والعباسيين ، وهو مصدر أساسي ايضا لما تضمنه من دراسات لجوانب العصر الذي كان يعيش فيه . .

ولأهمية الكتاب ومادته الغزيرة اختصر عدة مرات قديما وحديثاً . فقديماً اختصره ابن المغربي (ت ٤١٨ هـ) وابن واصل الحموي (ت ٦٩٧ هـ) وابن باقيا الكاتب الحلبي (ت ٤٨٥ هـ) وجمال الدين الانصاري (ت ٧١١ هـ) .

واختصره في العصر الحديث محمد الخضري بعد أن حذف منه الاسانيد وما لم يستحسن ذكره ، وجعله في قسمين ، قسم خاص بالشعراء وقسم خاص بالمغنين

وقد طبع الكتاب عدة طبعات ، اهمها طبعة بولاق وصدرت في عشرين جزءاً سنة ١٢٨٥ هـ وطبعة الحاج محمد الساسي المغربي سنة ١٣٢٣ هـ في أحد وعشرين جزءاً .

كما قام المستشرق جويدي باعداد مجموعة فهارس شاملة بناها على طبعة بولاق ، ونشرت هذه الفهارس في مجلد في ليدن ١٣١٨ هـ .

واحدث الطبعات طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة مطبعة التقدم بتحقيق احمد الشنقيطي .

مصادر ومراجع :

(١) الفهرست لابن النديم - طبعة الرحمانية - مصر - ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ ، وجمهرة الانساب لابن حزم ص ٩٨ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، طبعة رفاعي .

(٢) د . السعيد الورقي - في مصادر التراث العربي - الهيئة العامة للكتاب ٧٩ ،ص ٦٣

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء جـ ١٣ ص ٩٦

(٤) الأغاني - طبعة دار الكتب -

(٥) د . محمد أحمد خلف الله - صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني -

(٦) الفهرست لابن النديم - طبعة مصر - ص ١٦٨

نماذج من كتاب الاغاني

النص الأول

صوت فيه لحنان

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَّاءُ بينهما | أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرُونِ
إلى البَلاطِ فما حازت قَرائنُهُ | دُورٌ نَزَحْن عن الفَحْشاء والهُونِ
قد يَكْتم الناسُ اسراراً فاعلمُها | ولا يَنالون حتى الموتِ مَكْنونِي

عَروضه من اوّل البَسيط . القصرُ الذي عناه هاهنا قصرُ سَعيد بن العاص بالعَرْصة ، والنخل الذي عناه نخل كان لسعيد هناك بين قصره وبين الجَمَّاء ، وهي أرض كانت له فصار جميع ذلك لمعاوية بن أبي سفيان بعد وفاة سعيد ، ابتاعه من ابنه عمرو باحتمال دَيْنه عنه . وأبواب جَيْرُونَ بدمَشْق .ويُروَى : حاذت قرائنه ، من المحاذاة ، والقرائنُ : دور كانت لبنى سعيد بن العاص متلاصقة ، سُمِّيَتْ بذلك لاقترانها ، ونزحن : بَعُدن ، والنازح : البعيد ، يقال : نَزَح نُزُوحا ، والهُون : الهوان قال الراجز :

لم يَبْتَذِلْ مثلُ كريمٍ مَكْنونْ | ابيضَ ماضٍ كالسِّنانِ المَسْنون
كان يُوقِّي نفسَه من الهُونْ

والمكنون : المستور الخفي وهي مأخوذ من الكِنّ .

الشعر لأبي قطيفة المُعيطيّ ، والغناء لمعبد ، وله فيه لحنان :

أحدهما خفيف ثقيل اوّلُ بالوُسْطى في مَجْراها من رواية اسحاق وهو اللحن المختار ، والآخر ثقيل أولُ بالوُسْطى على مذهب اسحاق من رواية عمرو بن بانة .

حـ ١ ، ص ١١ ـ ط . دار الكتب المصرية ١٩٢٧

(٢)

ذكر معبد وبعض اخباره

« هو مَعْبد بن وَهْب . وقيل ابن قَطَنِيّ مَوْلى ابن قَطْر ، وقيل ابن قَطَن مولى العاص بن واصِبَة المَخْزومي ، وقيل بل مولى معاويةَ بن أبي سفيان .

وذكر ابن خُرْدَاذْبة أنه غنّى في أول دولة بن أمية ، وأدرك دولة بن العباس وقد اصابه الفَالِجُ وارتعش وبطل ، فكان إذا غنّى يُضْحِك منه ويُهْزَأ به .

وابن خُرْدَاذْبَه قليلُ التصحيح لما يرويه ويُضمنه كُتُبه . والصحيح ان معبدا مات في أيام الوليد بن يزيد بدِمَشْق وهو عنده وقد قيل : إنه اصابه الفالجُ قبل موته وارتعش وبطل صوتهُ . فأما إدراكه دولة بن العباس فلم يَرْوِه احد سوى ابن خُرْدَاذْبَه ولا قاله ولا رواه عن احد ، وإنما جاء به مُجَازَفةً » .

[جـ١ ، ص ٣٦]

(٣)

من اخبار العرجي

« هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفّان بن ابي العاص بن أميةَ بن عبد شَمْس . . . أخبرني الحَرَميّ بن ابي العلاء ، قال حدّثنا الزُبَير بن بكّار قال حدّثني عمي : انه إنما لُقّب العَرْجِيّ لانه كان يسكنُ عَرْجَ الطائف ، وقيل : بل سُمّيَ بذلك لماءٍ كان له ومال عليه بالعَرْجَ .

وكان من شعراء قريش ومنْ شُهِرَ بالغَزَل منها ، ونحا نحو عمرَ بن ابي ربيعةَ في ذلك وتشبَّه به فأجاد ، وكان مَشْغُوفاً باللهو والصيد حريصاً عليها قليل المُحاشاةِ (الاكتراث) لأحد فيها . . . .

قال عبدُ الله بن عمرَ العُمَريّ . خَرَجتُ حاجاً فرايتُ امراةً جميلةً تتكلّم بكلام ارْفَثَتْ فيه ، فأدنيت ناقتي منها ، ثم قلتُ لها : يا امةَ الله ، السْتِ حاجّةً : اما تخافين الله ، فسفَرتْ عن وجهٍ يَبْهَرُ الشمس حُسْناً ، ثم قالت : تأمل يا عمّ فإني ممّن عناه العَرْجيُّ بقوله :

أماطَتْ كساءَ الخزِّ عن حُرِّ وجْهها ... وأدنت على الخَدّينِ بُرْداً مُهَلْهَلا
من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبةً ... ولكنْ ليقتُلْنَ البريءَ المُغَفَّلا

قال : فقلت لها : فاني اسأل الله الا يُعذّب هذا الوجه بالنار . قال . وبلغ ذلك سَعيد بن المُسيّب فقال : اما والله لو كان من بعض بُغَضاء العراقِ لقال لها : اغربي قبّحكِ الله ، ولكنه ظَرْفُ عُبّاد اهل الحجاز . . . .

والغناء في هذه الابيات لقرار المكّي ، ثاني ثقيل ، وفيه خَفيفُ ثقيل

لَمْعَبَدٍ ، وفيها لعبد الله بن العبّاس الرُّبيعي ثقيل أول ، ويقال إن خفيف الثقيل لابنُ سُرَيج ويقال للغريض .

[الجزء الاول صفحات ٣٨٣ و٣٨٥ و٤٠٣ ـ ٤٠٤]

(٤)

اخبار ديك الجن ونسبه

وديكُ الجنِّ لَقَبٌ غَلَبَ عليه ، واسمه عبد السلام بن رَغْبان بن عبد السلام بن حَبيب بن عبد الله بن رَغْبان بن يزيد بن تميم ، وكان جَدّه تميم ممن انعم الله - عز وجل - عليه بالاسلام من أهل مؤتة على يديْ حَبيب بن مَسْلَمَة الفِهْري . وكان شديد التشعُّب [الشعوبية] والعصبية على العرب ، يقول : ما للعرب علينا فضل ، جمعتنا واياهم ولادة ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، واسلمنا كما اسلموا ، ومَنْ قَتَل منهم رجلاً منا قُتِل به ، ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا ، إذ جمعنا الدين . وهو شاعرٌ مجيدٌ يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره . ومن شعراء الدولة العباسية . وكان من ساكني حمص ، ولم يبرح نواحي الشام ، ولا وفد الى العراق ولا الى غيره مُنتجعاً بشعره ولا مُتَصَدِّيا لاحد ، وكان يتشيع تشيُّعا حسناً ، وله مراثٍ كثيرة في الحسين بن عليّ عليهما السلام .

[ص ٥١ - جـ ٦]

موسوعات القرن الثامن الهجري
دوائر المعارف الاسلامية

(١)

تميز القرن الثامن الهجري في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، هي ظاهرة الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى . فقد الفت في هذا العصر مجموعة من المؤلفات الجامعة التي يمكن ان نعدها بمقاييس عصرنا دوائر في المعارف العامة .

ولقد ذهب الباحثون في تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى ، فأرجعها البعض الى احساس العلماء والمفكرين في هذا العصر بضرورة تجميع الجهد العالمي والادبي العربي بعد ان قضى التتار على العلم العربي وعلمائه بالتشريد والحرق وكل عوامل الضياع والتبديد ، مما دفع العلماء والادباء المصريين الى « التفكير في انقاذ الثقافة الاسلامية التي جنى عليها الجهل والظلم والتوحش . ورأى العلماء المصريون يومئذ أن خير طريقة ينقذون بها الثقافة الاسلامية الضائعة هي جمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة في كتب كبيرة على شكل موسوعات أو دوائر معارف عظيمة لا تدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المواد الا أحصتها »[١] .

ورأى فريق من الباحثين ان الدافع الى تأليف هذه الموسوعات كان ديوان الانشاء فقد دفع الاهتمام به إلى تشجيع العلماء والادباء وكتاب الموسوعات على هذا الاتجاه .

وتعرف هذا القرن على عدد من هذه المؤلفات الموسوعية ومنها :

---

(١) د عبد اللطيف حمزة الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص ٣١٥

« لسان العرب لابن منظور » ابو الفضل محمد بن جلال الدين (ت ٧١١) و « نهاية الأرب في فنون الادب » لأحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣) و « مسالك الإبصار في ممالك الامصار » لأحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) و « صبح الأعشى في صناعة الانشا » لأبي العباس القلقشندي » (ت ٨٢١ هـ).

وتختلف هذه الموسوعات عن المؤلفات الجامعة او الموسوعات الادبية التي تعرفنا عليها من قبل في مؤلفات مثل البيان والتبيين والكامل والأغاني فقد جمعت هذه المؤلفات الاخيرة مادة اخبارية متسعة يغلب عليها الفوضى في تجميع المعلومات ، اما موسوعات العصر المملوكي او الموسوعات المتأخرة عموما مثل العقد الفريد ومؤلف ابن خلدون الموسوعي ، فهي موسوعات بنيت على تنظيم دقيق وتقسيم علمي في فصول وأبواب مستقلة بعضها عن البعض الأخر . هذا الى جانب ان كل موسوعة من موسوعات العصر المملوكي كان يغلب عليها في الواقع لونا تخصصياً من ألوان المعرفة ، فغلب طابع الموسوعة اللغوية على لسان العرب وطابع الموسوعة الأدبية على نهاية الأرب والموسوعة الجغرافية على مسالك الابصار والموسوعة التاريخية على كتاب العبر لابن خلدون ، والموسوعة الانشائية على صبح الاعشى .

لسان العرب لابن منظور
[٦٣٠ - ٧١١ هـ]

ابن منظور هو محمد بن جلال الدين مكرّم بن نجيب الدين ابي الحسن علي بن احمد بن ابي قاسم بن حبقة بن محمد بن منظور ويكنى أبا الفضل وينسب الى رويفع بن ثابت الانصاري الذي كان والي طرابلس من قبل معاوية وغزا افريقيا سنة سبع وأربعين .

ويرجح انه ولد بمصر سنة ثلاثين وستمائة ، واشتغل في طفولته بالعلم والتحصيل حيث كانت نشأته الاولى في بيئة علمية ، تحدث ابن منظور عنها في مقدمة كتابه « نثار الازهار » الذي اختصر فيه كتاب التيفاشي [شرف الدين أحمد بن يوسف ت ٦٥١ هـ] « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب .

ويذكر ابن حجر في الدرر الكامنة أن ابن منظور قد تتلمذ لابن المقبر ومرتضى بن حاتم وعبد الرحيم بن الطفيل ويوسف بن المخيلي وغيرهم .

كما أجمع من ترجم لابن منظور على انه كان محدثا فقيها ، عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة . وقد أهلته هذه المعرفة وتلك الثقافة لان يعمل في ديوان الانشاء بمصر ، ثم وُليّ القضاء في طرابلس ، وعاد الى مصر حيث توفي بها سنة ٧١١ هـ .

ومن تلاميذ ابن منظور المشهورين تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦ هـ) والذهبي المؤرخ وقطب الدين ولد ابن منظور الذي اصبح كاتب الانشاء بمصر .

ولابن منظور مؤلفات كثيرة في الفقه وعلوم اللغة والمعارف الكونية ، فيذكر الصفدي في كتابه « أعيان العصر » ان ابن منظور ترك بخطه خمسمائة مجلد

وأغلب مؤلفات ابن منظور اختصارات للكتب المطولة التي صنفت قبله ، فقد كان كما يقول ابن حجر صاحب الدرر الكامنة « مغرماً باختصار كتب الأدب المطولة والتواريخ ، وكان لا يمل من ذلك » .

ومن هذه المختصرات :

١ ـ مختار الاغاني في الاخبار والتهاني . ويقع في نحو أربعة أجزاء كبار ، اختاره ابنُ منظور من أغاني أبي الفرج ورتبه على حروف الهجاء بدلاً من ترتيبه على الأصوات كما فعل أبو الفرج .

٢ ـ مختصره لكتاب يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي ت ٤٢٩ هـ.

٣ ـ مختصره لكتاب زهر الاداب وثمر الألباب لابي اسحاق ابراهيم القيرواني ت ٤٥٣ هـ .

٤ ـ كشف الظنون واختصر فيه كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ت ٥٧١ هـ .

٥ ـ مختصره لكتاب « تاريخ بغداد للسمعاني » ت ٥٦٢ هـ .

٦ ـ مختصره لكتاب « حلية الأولياء لابي نعيم الاصفهاني » ت ٤٣٠ هـ .

٧ ـ مختصر لكتاب « مفردات ابن البيطار » ت ٦٤٦ هـ .

٨ ـ لطائف الذخيرة « وهو اختصار لكتاب » الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ٣٠٣ هـ .

وغيرها كثير .

اما لسان العرب فهو أهم مؤلفات ابن منظور ، وقد جرى فيه المؤلف على نفس النهج الذي اتبعه في سائر تاليفاته ، واعنى بذلك حسن الجمع والنقل ، وحسن التبويب والعرض الميسر ، فنراه يقول في مقدمة معجمه « وأنا مع ذلك لا ادعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت أو

فعلت فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً . وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم » .

فقد وجد من خلال شغفه بمطالعة كتب اللغات والاطلاع على تصانيفها وعلل تصاريفها ، وجد علماء هذه المؤلفات « بين رجلين : اما من احسَنَ جَمْعَهُ فانه لم يُحسِن وضعه ، واما من أجادَ وَضْعَهُ فإنه لم يُجِدْ جَمْعَه . فَلَمْ يُفِدْ حُسْنُ الجَمْع مع إساءَةِ الوَضْع ، ولا نَفَعَتْ إجادَةُ الوضع مع رداءَةِ الجَمْع » . فحاول ابن منظور في لسان العرب ان يجمع الحسنيين ، حسن الوضع وحسن الجمع .

ومصادر ابن منظور في معجمه « لسان العرب » كما ذكرها في مقدمته خمسة . يقول « وما تصرفت فيه (في اللسان) بكلام غير ما فيها (ما في هذه المؤلفات) من النص . فليقيد من ينقل عن كتابي هذا انه ينقل عن هذه الاصول الخمسة » .

اما هذه الأصول الخمسة فهي تهذيب اللغة للأزهري (ت ٣٧٠) والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري (ت ٤٠٠ هـ) والحاشية على الصحاح لابن بري والنهاية لابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)

يقول في مقدمته « ولم أجد في كتب اللغة أجمل من « تهذيب اللغة » لابي منصور محمد بن أحمد الازهري ، ولا اكمل من « المُحْكَم » لابي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الاندلسي وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق » . و «رأيت ابا نصر اسماعيل بن حماد الجَوْهَرِيّ قد أحسن ترتيب مختصره . . . وهو مع ذلك قد صَحَّفَ وحَرَّفَ وجَزَّفَ فيما صَرَّفَ فأتيح له الشيخ أبو محمد بن بَرّى فتتبع ما فيه ، وأملى عليه أماليه » ولما أراد ابن منظور لكتابه أن يشتمل على جليل الاخبار وجميل الآثار وآيات القرآن الكريم والاشعار والامثال رأى أن « أبا السعادات المبارك بن محمد

بن الأثير الجزري قد جاء في ذلك بالنهاية » .

وقد حاول ابن منظور في مقدمته ان يشرح مناهج الكتب الخمسة ، وما لاحظه عليها من مشقة وعسر، رأى معها أن يجمع منها ما يراه صالحاً ، وأن يرتبه « كما رتّب الجوهري صحاحه » وذلك بتقسيم الكتاب على أبواب وفقاً لترتيب الحرف الاخير في الكلمة ، ثم يفرع على الباب فصولاً وفقاً لتوالي الحروف الأولى من كلمات الباب .

وبعد هذه المقدمة التي تناول فيها ابن منظور اهمية تأليفه لكتابه لسان العرب ، ومصادره في التأليف وقصور هذه المصادر ومنهج مؤلفيها ، ثم منهجه هو . بعد هذه المقدمة وضع ابن منظور فصلين تمهيديين ، تناول في الأول تفسير الحروف المقطعة التي وردت في أوائل بعض سور القرآن الكريم . وتناول في الفصل الثاني القاب الحروف وطبائعها وخواصها فذكر فيها أقوال علماء اللغة والنحو ومن تحدث عن الدلالات والاستخدامات السحرية للحروف كأبي العباس أحمد البوني والبعلبكي . والشيخ ابي الحسن علي الحرالي (ت ٦٣٧ هـ) أما مادة الكتاب فتبلغ ثمانين الف مادة مقسمة على حروف المعجم وفقا للحرف الاخير في الكلمة . وطريقة ابن منظور في كل باب ان يبدأ بذكر الحرف وخواصه ثم يتبعه بمواد باب الحرف فيذكر كل ما يتعلق بالمادة من حيث الصياغة والاشتقاق والافراد والجمع والتجريد والزيادة والمعنى والدلالة . غير ان ابن منظور لم يتبع في صياغته لمواد معجمه نظاماً بعينه ربما نتيجة لكثرة حشوه ونقولاته من المصادر الأخرى .

هذا وقد طبع لسان العرب أكثر من طبعة . طبعته المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين جزءاً تضمها عشرة مجلدات ، وهذه أول طبعات هذا المعجم وتعرف بطبعة بولاق .

وفي سنة ١٣٥٥ هـ قام عبد الله اسماعيل الصاوي باعادة ترتيب مواد

اللسان ونشا للترتيب الهجائي ، وطبعت من هذه المحاولة بضعة أجزاء صغيرة ثم توقفت .

وطبعته « دار صادر » بيروت سنة ١٣٧٤ هـ في خمسة وستين جزءاً اعتماداً على طبعة بولاق .

ثم طبعته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر طبعة مصورة عن طبعة بولاق كذلك . وطبعته « دار لسان العرب » ببيروت طبعة مصورة عن طبعة « دار صادر » وان اختلفت عن طبعة دار صادر في ان موادها مرتبة على الحروف الهجائية .

وتقوم حاليا دار المعارف (١٩٧٩ م) نشره في أجزاء بتحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي في طبعة جديدة مرتبة على حسب حروف المعجم كما في المصباح المنير .

مصادر ومراجع

١ ـ ابن حجر : الدرر الكامنة
٢ ـ ابن منظور : لسان العرب
٣ـ د . حسن نصار : المعجم العربي
٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية
٥ ـ الصفدي : أعيان العصر
٦ ـ د . عبد الله درويش : المعاجم العربية .

نماذج من لسان العرب

من خواص الحروف

(١)

« وأما خواصها : فإن لها اعمالاً عظيمة تتعلق بابواب جليلة من انواع المعالجات وأوضاع الطُّلَّسمات ولها نفع شريف بطبائعها ، ولها خُصُوصيةٌ بالافلاك المقدسة وملائمةٌ لها ، ومنافع لا يُحْصيها من يَصِفُها ليسَ هذا مَوْضِعُ ذكرها ، لكنا لا بد ان نلوح بشيء من ذلك ننبه على مقدار نعم الله تعالى على من كشف له سِرُّها وعلمه عِلمَها ، وأباح له التصرف بها . وهو أن منها ما هو حار يابس طَبْعُ النار ، وهو : الألف والهاء والطاء والميم والفاء والشين والذال ، وله خصوصية بالمُثَلَّثة النارية ، ومنها ما هو باردٌ يابسٌ طَبْعُ التراب وهو الباءُ والواو والياء والنون والصاد والتاء والضاد ، وله خُصُوصية بالمثلثة الترابية . ومنها ما هو حار رطب طبع الهواء وهو الجيم والزاء والكاف والسين والقاف والثاء والظاء وله خصوصية بالمثلثة الهوائية . ومنها ما هو بارد رطب طبع الماء وهو الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والغين وله خُصُوصيَّةٌ بالمثلثة المائية .

ولهذه الحروف في طبائعها مراتبُ ودرجات ودقائق وثوانٍ وثوالِثُ وروابعُ وخوامسُ يوزن بها الكلام ، ويَعْرِفُ العملَ به علماؤه ، ولولا خَوْفُ الاطالة ، وانتقاد ذوي الجهالة وَبُعْدُ أكثر الناس عن تأمل دقائق صنع الله وحكمته ، لذكرتُ هنا اسراراً من أفعال الكواكب المقدسة ، اذا مازَجَتْها الحروف تَخرقُ عُقُولَ مَنْ لا اهتدى إليها ، ولا هَجَم به تنقيبُهُ وبحثُهُ عليها »

[فصل : القاب الحروف وخواصها]

(٢)

في الحديث عن حرف الهمزة

« هي حلقيةٌ في أقصى الفم ، ولها ألقابٌ كالقاب الحرُوفِ الجُوفِ :

فمنها هَمزةُ التأنيث ، كهمزةِ الحمراءِ والنُّفساء والعُشراءِ . . .

ومنها الهمزة الأصلية في آخر الكلمة مثلُ : الخفاءِ والبّواءِ . . .

ومنها هَمْزَةُ المَدَّةِ المُبدلةُ من الياء والواو كهمزة السماء والبكاء . . .

ومنها الهمزة المُجتَلَبةُ بعد الالف الساكنة ، نَحْوُ همزةِ وائل وطائف ، وفي الجمع نحو كتائب وسرائر .

ومنها الهمزة الزائدةُ نحو همزة الشَّمْأل والشّأمل . . .

ومنها الهمزة التي تزاد لِئلاّ يَجْتَمِعَ ساكنان نحو : اطْمَأَنَّ واشمأزَّ ومنها همزة الوقفةِ في آخر الفعل ، لغةٌ لبعض دون بعض نَحوُ قَوْلِهمْ للمرأة : قُولِيء وللرجلين قُولاً ، وللجميع قُولوءْ ، وإذا وصلوا الكلام لم يهمزوا ويهمزون اذا وقفوا عليها .

ومنها همزة التّوهُم ، كما رَوَى الفراءُ عن بعض العرب أنهم يَهْمِزُون ما لا هَمْزَ فيه اذا ضارعَ المهموز . قال : وسمعتُ امرأةً من غَنِيٍّ تقُولُ : رَثأتُ زوجي بأبيات ، كأنها لما سَمِعتْ رَثَأْت اللبن ذهبتْ إلى أن مرثية الميت منها .

ومنها الهمزة الاصلية الظاهرة نَحْوُ هَمْزِ الخَبْءِ والدِّفْءِ . . .

ومنها اجتماعُ همزتين في كلمة واحدة نَحْوُ همزتي الرئاءِ والحاوِئاءِ .

ومنها اجتماع الهمزتين بمعنيين ، واختلاف النحويين فيها . قال الله عز وجل « أَأَنْذَرْتَهُمْ » .

[حرف الهمزة]

(٣)
في الحديث عن الألف

« الألِفُ : تَـأليفُها من همـزةٍ ولام وفاء ، وسُميت ألفـاً لأنها تـألفُ الحروف كُلَّها . وهي أكثر الحروف دخـولاً في المنطق ، ويقـولون : هـذه ألفٌ مُؤَلَّفَةٌ .

وقـد جاء عن بعضهم في قـوله تعـالى « آلم » أن الألف اسم من اسماء الله تعالى وتَقَدَّس . والله أعلم بمـا أراد والألف اللينة لا صـرفَ لها ، إنّما هي جَرْسُ مَدَّةٍ بَعْدَ فَتْحةٍ .

وروى الأزهـريُّ عن أبي العباس احمد بن يحيى ومحمد بن يـريد انهما قالا : أُصُولُ الالفاتِ ثلاثة ويَتْبَعُها الباقيات :

وألف اصلية ، وهي في الثلاثي من الأسماء

وألف قطعية وهي في الرباعي

والف وصلية وهي فيما جاوز الرباعي .

قالا : فالأصلية مثل ألِفِ ألِفٍ وإلفٍ وألْفٍ وما اشبهه .

والقطعية مثلُ ألِفِ أحمد وأحمرَ وما اشبهه ،

والوصلية مثلُ ألفِ استنباط واستخراج .

وهي في الافعال :

اذا كانت أصليةً مثلُ ألفِ أكلَ ،

وفي الرباعي اذا كانت قطعيةً مثلُ ألِفِ أحْسَنَ

وفيما زادَ عليه مثلُ ألِفِ استكبر واستدرج اذا كانت وصليةً » .

[باب الهمزة]

(٤)

مادة بحت

والبَحْتُ : الخالِصُ من كل شيء ، يُقال : عَرَبيٌّ بحتٌ ، واعرابيٌّ بَحْتٌ ، وَعَربيةٌ بَحْتَةٌ كقولك مَحْضٌ . وخَمْرٌ بَحْتٌ وخمور بَحْتَةٌ والتذكير بَحْتٌ .

الجَوهري : عَرَبيٌّ بحتٌ أيْ محض ، وكذلك المؤنث والاثنان والجمع .

وإن شئت قلت : امرأةٌ عربيةٌ بحتةٌ ، وثنَّيتَ وجمعت .

وقال بعضهم لا يثنى ولا يجمع ولا يُحَقَّر .

وأكل الخُبْزَ بحتاً بغير أُدُم . وأكل اللحم بَحْتاً بغير خُبْز ، وقال أحمد بن يحيى : كلُّ ما أُكِل وحدَهُ مما يُؤدَمُ ، فهو بحت ، وكذلك الأدْمُ ، دون الخبز ، والبحتُ : الصِّرفُ وشرابٌ بَحْتٌ : غيرُ ممزوج .

وقد بَحُتَ الشيءُ بالضمِّ أي صار بحتا ، ويقال بَرْدٌ بَحْتٌ لَحْتٌ أي شديدٌ ويقالُ : باحَتَ فُلانٌ القتال إذا صَدَقَ القتال وَجَدَّ فيه ، وقيل : البركاءُ مُبَاحَتَةُ القتال .

وباحَتَهُ الوُدُّ أي خالَصَه ، ابن سيده : وباحَتَهُ الوُدُّ ، أخلَصَهُ له . وباحَتَ الرَجُلُ الرجُلَ : كاشفه .

وفي حديث أنس : اختضب عمرُ بالحِناء بَحْتًا ، البحتُ : الخالص الذي لا يخالطه شيء . وفي حديث عمر رضي الله عنه : انّهُ كتب اليه أحَدُ عُمّاله من كُورَةٍ ذكر فيها غلاءَ العَسَل ، وَكَرِهَ للمسلمين مُباحَتَةَ الماءِ اي شُرْبَهُ بحتا ، غَيْرَ ممزوجٍ بعسلٍ أو غَيْرِهِ ، قيل : أراد بذلك ليكون أقوى لهم .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

لابن خلدون ٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ

ابن خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن ولي الدين بن خَلدون المالكي ، وترجع أسرته إلى أصل يماني حضرمي استقرت في الاندلس مع العرب الفاتحين لها ، واشتهروا باسم بني خلدون نسبة إلى جدهم خالد بن عثمان .

وقد بقي بنو خلدون في اشبيلية بلا زعامة ولا رياسة طوال عهد الدولة الاموية . حتى اذا جاء عهد الطوائف سطع نجمهم وخاصة بعد اشتراك زعمائهم في موقعة « الزلاّقة التي انتصر فيها المعتمد بن عباد وحليفه يوسف بن تاشِفِين المرابطي على ألفونسو السادس ملك قشتاله عام ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) فوصل بعضهم الى مراتب الرياسة والوزارة .

كان أبوه « أبو عبد الله محمد » فقيها متصوفاً مقدماً في صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه .

أما عبد الرحمن فقد ولد بتونس في أول رمضان عام ٧٣٢ (١٣٣٢ م) ، ولما بلغ سن التعلم بدأ بحفظ القرآن وتجويده وكانت تونس آنذاك مركز العلماء والادباء في بلاد المغرب .

ثم درس ابن خلدون العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول وتوحيد على المذهب المالكي . ودرس العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب ثم درس المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية .

كان معلمه الأول والده ، ثم لم يلبث أن تتلمذ على كبار علماء عصره ومشايخهم وقد ذكرهم في كتابه الذي ترجم فيه حياته وهو « التعريف بابن خلدون » ومنهم : محمد بن سعد بن بُرّال الأنصاري ومحمد بن العربي الحصايري ومحمد بن بحر ومحمد بن عبد الله الجُيّاني الفقيه المالكي ومحمد بن عبد المهيمن امام المحدثين والنحاة بالمغرب آنذاك ، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي شيخ العلوم العقلية وكانت تشمل المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والفلكية والموسيقى .

وفي فترة الدرس والتحصيل ، تمكن ابن خلدون من دراسة عدد من أمهات الكتب العربية ومنها اللامية في القراءات والرائية في رسم المصحف للشاطبي والتسهيل في النحو لابن مالك والأغاني لابي الفرج الاصفهاني والمعلقات وكتاب الحماسة للأعلم وصحيح مسلم وموطأ مالك وعلوم الحديث لابن الصلاح والسير لابن اسحق وغيرها .

ولم تطل مدة التفرغ للتحصيل والدرس عند ابن خلدون بسبب الطاعون الذي انتشر في البلاد عام ٧٤٩ هـ وهجرة معظم العلماء والأدباء الذين افلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب الأقصى ، فانصرف ابن خلدون إلى العمل حيث تولى وظيفة « كتابة العلامة » في عهد ابن تافراكين وزير الفضل بن السلطان ابي يحيى الحفصي ٧٥١ هـ ، وهي وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم .

وتنقل ابن خلدون بعد ذلك في الوظائف والبلدان ، فعين عضواً في المجلس العلمي بفاس عام ٧٥٥ في بلاط أبي عنان وهناك تمكن من متابعة درسه وتحصيله على العلماء والادباء الذين كانوا قد نزحوا إلى فاس من الاندلس ومن تونس وغيرها من بلاد المغرب ، كما تمكن من زيادة اطلاعه

باختلافه إلى مكتبات فاس التي كانت من اغنى المكتبات الاسلامية آنذاك .

وفي فاس أيضاً تآمر ابن خلدون مع امير من بني حفص ضد أبي عنان الذي بلغه امر المؤامرة فألقى القبض عليهما ، وظل ابن خلدون محبوساً حتى موت أبي عنان ٧٥٩ هـ حيث عين في كتابة سر أبي سالم بن أبي الحسن احد اخوة ابي عنان .

ولم تكن حياة ابن خلدون في هذه الفترة التي قضاها بالمغرب الاقصى حياة هادئة هانئة فقد تخللتها مؤامرات عديدة كان يشترك فيها ، وقد انتهت به واحدة من هذه المؤامرات الى السجن على نحو ما مر بنا .

مكث ابن خلدون بالمغرب الأقصى نحو ثماني سنين قصد بعدها الاندلس ومكث بها سنتين من ٧٦٤ ـ ٦٦ هـ ما بين سبته وغرناطة عاد بعدهما الى المغرب لمدة عشر سنوات ما بين بجاية وبَسْكرَة وفاس ولم ينقطع خلالها عن الاشتراك في المؤامرات والمغامرات حتى إنه لم يجد بدأ من الرحيل إلى الاندلس بعد أن اصبح موضع ريبة من امراء المغرب ، فترك اسرته بفاس إلى الاندلس سنة ٧٧٦ ثم عاد مرة أخرى إلى المغرب وقد عزم على أن يترك شئون السياسة وينقطع للقراءة والتأليف .

وفي هذه الفترة بدأ ابن خلدون في تدوين كتابه الموسوعي « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » وكان حينئذ في نحو الخامسة والاربعين من عمره « وقد نضجت معارفه واتسعت دائرة اطلاعه وارتقى تفكيره وأفاد ايما فائدة من تجاربه ومشاهداته في شئون الاجتماع الانساني على العموم ، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن في غمار السياسة متقلباً في خدمة القصور والدول

[illegible]

[illegible]

[illegible] من ذلك وما إليها.

أما المرحلة الثانية [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وتاريخ الدولة الإسلامية.

وهذه هي الصفحة التي يطلق عليها الآن [illegible] الفلسفة التاريخية ».

---

(١) د. علي عبد الواحد وافي. عبد الرحمن بن خلدون. سلسلة أعلام العرب (٤) ، القاهرة ، ص ٨ .

وقد أكملت هذه النسخة بعد أن هاجر الى مصر ، وأضاف ابن خلدون اليها أقسام كثيرة أخرى في تاريخ الدول الاسلامية في المشرق وفي الاندلس وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية والأعجمية وتاريخ المغرب .

كما نقح أقسام المقدمة وأضاف إليها بعض الفصول التي لم تكن موجودة من قبل .

ارتبطت حياة ابن خلدون على نحو ما مر بنا في شطرها الأكبر بالسياسة « فكانت سلسلة من مؤامرات البلاط لم يقدر لها النجاح »[1] . بل أوصلته في بعض المواقف الى السجن كما مر بنا .

وإذا كان ابن خلدون في هذه المرحلة لم يستطع أن يحقق نجاحاً سياسياً ذا بال فقد تمكن بفضل هذا الاتصال والاشتراك الفعلي من أن يكون نظريته الخاصة بالسلطة السياسية ، وهي النظرة التي أفادته كثيراً في دراسته العلمية عن علم العمران وعوامل التفاعل في تكوين العمران الإنساني .

ويبدو أن انسحاب ابن خلدون من هذه الممارسة السياسية قد جاء نتيجة احساسه بالفشل بعد عشرين سنة مضنية لم يحقق منها مغنماً وكان هذا الانسحاب بداية مرحلة جديدة يطلق عليها الباحثون مرحلة التفرغ والتأليف[2]. وفيها كتب ابن خلدون موسوعته التاريخية التي ضمت المقدمة وأبواب كتاب العبر على نحو ما أوضحنا من قبل . ولقد أحس ابن خلدون بعد انتهائه من هذا العمل الذي استغرق ثماني سنوات قضى أربع منها في قلعة ابن سلامة بوهران ، وأربع سنوات تالية في تونس ،

---

(١) جوستون بوتول : ابن خلدون (فلسفته الإجتماعية) ، ص ١٤ .

(٢) د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، ص ٧٧ .

أحس ابن خلدون خلال هذه المرحلة بل ربما قبل هـذا بالتشـوق الى العلم والـرغبة في الانصـراف عن السياسـة ، ولذلـك فلم يـرتـح كثيـراً للحيـاة السياسية العاصفة في المغرب الشرقي وربما لم يجد فيها الطمـأنينة التي كـان يرجوها أخيراً فآثر الهجرة إلى بلد يكون أقل اضطرابـاً ، وهكذا بلغ مصـر عام ٧٨٤ (١٣٨٢ م) .

وفي مصر تولى ابن خلدون عدداً من المناصب القضائية الدينية تخللتها سلسـلة من الأحداث منها المنازعات والعداوات التي أثارتها طبيعته الجافة .

يقـول ابن خلدون في كتابـه « التعريف » عن هـذه الاحداث « فكـثر الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجو بيني وبـين أهل الـدولة ، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفن فأصابها قـاصف من الـريح فغـرقت ، وذهب الموجـود والسكن والمولـود . فعـظم المصـاب والجزع ورجح الزهد واعتزمت على الخروج عن المنصب »[١] .

ومن هـذه الاحداث التي تخللت حياته في فترة اقامته بمصر كـذلـك نجاته بما يشبه المعجزة من مذبحة تيمور لنك في دمشق .

رحل ابن خلدون إلى مصر في فترة كانت القاهرة يومئذ موئل التفكـير الاسلامي في المشرق والمغرب ، وكان لسلاطينها المماليك شهـرة واسعة في حماية العلوم والفنون في المدارس العديدة التي انشئوها ، وفي الجامع الأزهر الذي أنشيء من قبلهم في عهد الفاطميين »[٢].

وكان ابن خلدون حينئذ في الثانية والخمسين من عمره « ولكنه كان لا يزال موفور النشاط والقـوة ، متطلعـاً إلى مراتب العـزة والنفوذ عن طـريق

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، ص ٢٦٠

(٢) د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، ص ٩١ ، ٩٢

كفايته العلمية لا عن طريق المغامرات السياسية التي ملتها نفسه وهاجر من المغرب فراراً من ويلاتها » .

وفي الأزهر تصدر ابن خلدون حلقة للتدريس العام فدرس الحديث والفقه المالكي ونظرياته الاجتماعية التي ضمنها مقدمته ، وكانت هذه المقدمة قد سبقته الى القاهرة فأعجبت العلماء بطرافتها وجدتها .

وفي مصر تمكن ابن خلدون من مراجعة مؤلفه الكبير ومقدمته فأضاف عدة فصول متصلة بتاريخ الدولة الاسلامية في المشرق وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية والأعجمية ، ووصل في رواية حوادث المشرق والأندلس والمغرب الى أواخر القرن الثامن الهجري .

كذلك قام ابن خلدون في هذه الفترة بتنقيح كتابه التعريف الذي سماه أولاً « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل به كتاب « العبر » . وأضاف اليه ما استجد من أحداث فوصل به إلى نهاية عام ٨٠٧ هـ إلى قبيل وفاته بشهور .

ولما رأى ابن خلدون أن هذا التعريف قد أصبح كبير الحجم بما أضافه اليه من تنقيحات وزيادات، فصله عن كتاب العبر واستبدل بعنوانه القديم عنواناً آخر فسماه « التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً » .

ثم قدم نسخة من المؤلف كله : المقدمة والتاريخ والتعريف الى الملك الظاهر برقوق . كما أرسل نسخة منه إلى خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس مهداة الى سلطان المغرب أبي فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن حوالي عام ٧٩٩ .

وتعرف هذه النسخة الاخيرة باسم النسخة الفارسية نسبة الى

السلطان أبي فارس وعنها « نقلت في صورة مباشرة أو غير مباشرة جميع الطبعات المتداولة في العالم العربي المقدمة ابن خلدون »[1] .

وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفي ابن خلدون فجأة عن ستة وسبعين عاماً ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

تحدث ابن خلدون عن ثقافته في « التعريف » ومنها نرى أنه كان مثالاً للمثقف الموسوعي الذي يسعى للحصول على جميع أنواع المعارف ، فبعد ان حفظ القرآن عن ظهر قلب في التاسعة من عمره ، أمضى بعد ذلك خمس سنوات في شغل نفسه بفقه اللغة وبقواعد اللغة والنحو والنثر والشعر واشتقاق الكلمات ومؤلفات متعلقة بعلم الحساب . وفي الرابعة عشرة ، طرق دراسة علم الفلك وعلم التنجيم وعلم هندسة إقليدس وأما لجست أخذاً عن الطرائق المختلفة لاساتذة مدرسة البصرة واليونانيين المحدثين والهنود واليونانيين القدماء والبابليين ، ثم درس الفقه والشرائع والأحاديث وتفسيرات القرآن .

ولم ينقطع ابن خلدون عن طلب العلم حتى بعد أن تخطى مرحلة التحصيل ، فدرس بعد الثلاثين اللغات التي كتبت بها التوراة والمزامير والانجيل كما درس المنطق والطب والرياضيات العليا والاقتصاد السياسي والعلوم الخفية .

وقد بدا تأثير هذه الثقافة الموسوعية في مؤلفه الموسوعي في التاريخ العام من خلال منهج يمكن أن يوصف بالذهنية الوضعية . ذلك ان فلسفة ابن خلدون في تأليفه لموسوعته هذه قامت على الملاحظة التحليلية

---

(١) د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن ابن خلدون ، ص ١٢٥ .

الحوادث ، فكان موقف اهتمامه الأكبر على شرح وتحليل الحوادث (التاريخ) وذلك في موضوعية تتفق مع الواقع .

وتنقسم موسوعة ابن خلدون ثلاثة أقسام رئيسية هي :
المقدمة وكتاب العبر وكتاب التعريف .

أما المقدمة وهي التي تشغل الآن في المجلد الأول من المطبوعات المصرية الكاملة لمؤلفه وأشهرها طبعة بولاق ١٨٦٨ م ، فتشتمل على :

١ . خطبة الكتاب وفيها غرضه من التأليف لجهود الذين من قبله ويعرض النقد في كتاباتهم ثم أشار إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف كتابه هذا ، ويبين طريقته وأقسامه .

٢ . المقدمة ويتحدث فيها ابن خلدون عن فضل التاريخ ومذاهبه وما يقع فيه المؤرخون من المغالط والأوهام .

٣ . الكتاب الأول ويتناول فيه طبيعة العمران في الخليقة ، ويشتمل على تمهيد تحدث فيه ابن خلدون عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه ، كما أشار الى موضوعات هذا الكتاب وهي ستة موضوعات تناول فيها ظواهر الاجتماع الانساني من خلال الموضوعات الآتية :

الفصل الاول في العمران البشري على الجملة ويشتمل على ست مقدمات

الفصل الثاني في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل في تسعة وعشرين فصلاً

الفصل الثالث في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية في أربعة وثلاثين فصلاً .

الباب الرابع في البلدان والامصار وسائر العمران في اثنين وعشرين فصلاً

الباب الخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال في واحد وستين فصلاً .

وتشمل هذه المقدمة كما يتضح من عرضنا لفصولها جملة من العلوم والمعارف البشرية في التاريخ ومنهج البحث فيه وفي الجغرافية بفروعها المختلفة وفي نظم الحكم والسياسة ونشأة المجتمعات واختلاف المدن عمرانيا واجتماعيا واقتصادياً ولغوياً وفي مختلف فروع العلوم والفنون والآداب ونظم التربية والتعليم وغيرها .

ويضم كتاب العبر الكتاب الثاني والثالث من الموسوعة وهما بحوث تاريخية تناولت في الكتاب الثاني أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى عهده ، وكذلك الاشارة إلى أخبار من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة ، ويقع هذا الكتاب في أربعة مجلدات من طبعة بولاق من المجلد الثاني حتى المجلد الخامس .

وفي الكتاب الثالث تناول ابن خلدون « تاريخ البربر ومن اليهم من زنانة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ، ويقع هذا الكتاب في مجلدين من طبعة بولاق هما السادس والسابع .

وتأتي القيمة العلمية لهذا الجزء التاريخي من موسوعة ابن خلدون في تصحيحه لاخبار اسلافه من المؤرخين كابن هشام والواقدي والطبري والمسعودي وغيرهم ، وفيما تضمنه الكتابان من بحوث تاريخية استمدها من مشاهداته وقراءاته الخاصة التي لم يطلع عليها مؤرخو العرب من قبله ، ومن بعض مصادر كانت موجودة في عصره ولم تصل الينا . ويبدو هذا على الاخص في حديثه عن دول الاسلام في صقلية وعن تاريخ الطوائف

بالاندلس والممالك النصرانية في اسبانيا وتاريخ دولة بني الاحمر في غرناطة »[1] .

أما الجزء الثالث من موسوعة ابن خلدون ، فتنتمي الى ما يعرف الآن بالترجمة الذاتية Auto - Biographie ويشمل هذا الجزء كتاب ابن خلدون « التعريف » .

وفي هذا التعريف كتب ابن خلدون ترجمة مستفيضة لنفسه وما احاط به من حوادث متناولاً كل ذلك « في دقة المؤرخ الامين الحريص على الاستيعاب والشمول »[2] .

وتأتي أهمية كتاب التعريف إلى جانب ما فيه من كشف عن جوانب حياة ومكونات الكاتب ، فيما يتناوله من حوادث وأحوال للمجتمعات والنظم التي كان له علاقة بها ، وفي ذلك الحشد من الرسائل والاشعار التي تلقاها ابن خلدون من أصدقائه ، وما قام به ابن خلدون من تراجم لمعظم من عرض لذكرهم في كتابه .

وقد ألحق ابن خلدون هذه الترجمة بكتابه العبر وجعلها في باب سماه « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » . ويقع هذا الباب في نحو مائة صفحة من القطع الكبير في آخر المجلد السابع من طبعة بولاق ثم أدخل ابن خلدون أثناء مقامه بمصر الكثير من التعديلات والزيادات كما أشرنا من قبل ، وكان قد وقف في الجزء الذي احتفظت به طبعة بولاق عند مستهل عام ٧٩٧ هـ ، فأضاف الى النسخة المنقحة المزادة المرحلة الاخيرة من حياته والتي امتدت حتى نهاية ٨٠٨ هـ مما ضاعف من حجم

---

(١) د علي عبد الواحد وافي ، ص ٢٣٤

(٢) د علي عبد الواحد وافي ، ص ٢٣٩

نصوص من ابن خلدون

النص الاول

« فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ، ان ينظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به ، وما لا يمكن ان يعرض له .

وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه .

وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه . وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصواب فيما ينقلونه ، وهذا هو غرض الكتاب الاول من تأليفنا . وكان هذا علم مستقل بنفسه » .

[مقدمة ابن خلدون ، طبعة لجنة البيان العربي ، ص ٢٦٥] .

تعليق:

يشير ابن خلدون في هذه الفقرة إلى حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار المشكوك فيها والكاذبة كما يشير كذلك الى أهمية مراعاة المؤرخ لهذه الظاهرة وذلك بالقدرة على تمييز المحتمل وغير المحتمل من الاخبار المتعلقة بظواهر الاجتماع .

وابن خلدون محق في هذا ، فقد كانت كتب التاريخ آنذاك وقبل ذلك- لا تفرق بين الصحيح والكاذب من الأخبار كما كانت تجمع مادة اخبارية كثيرة يتداخل فيها المشكوك فيه والخرافي مع الأخبار الحقيقية .

وقد ناقش ابن خلدون هذه الظاهرة في عدد من المؤلفات السابقة

الكتاب في وضعه الأول ، فاستبدله ابن خلدون بعنوان آخر هو « التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته شرقاً وغرباً »

هذا وقد طبعت المقدمة منفصلة عدة طبعات منها :

١ ـ طبعة لجنة البيان العربي في أربعة أجزاء بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .

ط ـ طبعة مطبعة التقدم ، وأخرجها مصطفى فهمي الكتبي عام ١٣٢٩ هـ .

٣ ـ طبعة باريس التي أشرف عليها المستشرق كاترمير عام ١٨٥٨ م .

أما كتاب العبر فقد طبع بمطبعة بولاق عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨) في سبعة مجلدات وضم المقدمة وكتاب العبر والجزء الخاص بالتعريف .

هذا وقد طبع التعريف طبعة منفصلة اعتماداً على نسختين خطيتين للمؤلف بمكتبتي أيا صوفيا وأحمد الثالث ، وذلك في طبعة قامت بها لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥١ وهي طبعة مزودة بمقدمة وفهارس وكثير من الحواشي والشروح والتعليقات القيمة قام بها محققها محمد بن تاويت الطنجي .

مراجع ومصادر

ـ السخاوي : الضوء اللامع في اعيان القرن الرابع ، جـ ٤ .

ـ ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، ط . لجنة التأليف والترجمة ، تحقيق محمد تاويت الطنجي ، ١٩٥١

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م)
- جوستون بوتول : ابن خلدون ، فلسفته الاجتماعية ، ترجمة غنيم عبدون ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٤
- د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، سلسلة اعلام العرب ، مكتبة مصر .
- محمد عبد الله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكري .

وخاصة المسعودي . ويرد ابن خلدون في بحثه لهذه الظاهرة اسباب تفشي الكذب في الخبر في مؤلفات السابقين الى أمور يتصل بعضها بشخص المؤرخ وميوله وميول من ينقل عنهم كالتشيع للآراء والمذاهب ، فان هذا التشيع يحجب عن المؤرخ قدرة وفطنة الانتقاد والتمحيص فيقع في قبول الكذب ونقله ويرى ابن خلدون في هذا الصدد أن على المؤرخ أن يكون موضوعيا وذلك بالتجرد من الهوى والتشيع .

كذلك يرى ابن خلدون من أسباب تفشي الكذب في الخبر جهل المؤرخين بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية مما يؤدي بهم إلى قبول أخبار تحكم هذه القوانين باستحالة حدوثها .

ومنها كذلك الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الانساني ، ويتطلب هذا عند ابن خلدون المعرفة بالعلوم الطبيعية وقوانينها والمعرفة بطبائع الاحوال في العمران .

والفقرة السابقة من مقدمة ابن خلدون ، يشير فيها المؤلف الى ذلك العلم الجديد الذي يقول عنه بعد ذلك « ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة» وهذا العلم الجديد هو علم العمران أو علم الاجتماع الانساني ، وهو العلم الذي يبحث في قوانين الظواهر العمرانية (الاجتماعية) كظواهر يمكن خضوع حوادثها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين الطبيعية .

فالوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية وما تخضع له من قوانين هو ميدان علم العمران وهو ما تكشف عنه الفقرة السابقة .

النص الثاني

« حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران

العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » .

تعليق

يعتبر هذا التعريف بحق من أتم التعريفات ، بل انه يتجاوز الميدان الحقيقي للتاريخ فيحمل بذور جميع العلوم الاجتماعية كما هي مفهومة وموجودة في الوقت الحاضر[1]

فابن خلدون يشير في هذا التعريف الى الاهتمام بالبحث عن نشأة الحضارة وتكوين المجتمعات كما يشير الى الظواهر الاقتصادية وعلاقتها مع البيئة الطبيعية والجغرافية ، كما يشير أيضا الى الظواهر السياسية واقامة علاقات التبعية بين البشر ونشأة الدول . وهو منهج يدلل بوضوح على ذهن علمي يقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث وهو المنهج الذي اعتمده ابن خلدون في تأليفه لموسوعته التاريخية بشكل عام .

النص الثالث

« اعلم أرشدنا الله واياك ، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام ، وربط الأسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته . وأبدأ في ذلك بالعالم المحسوس

---

(١) انظر جوستون بوتول : ابن خلدون ، ص ٣٦ .

الجثماني ، وأولا عالم العناصر المشاهدة ، كيف تدرج صاعداً من الارض الى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد لأن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الاوقات

ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط .

ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الفطري لأن يصير أول أفق الذي بعده .

واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدريج التكوين إلى الانسان صاحب الفكر والرؤية ، ترتفع اليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الكيس والادراك ، ولم ينته إلى الروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده » .

[مقدمة ابن خلدون ، ط . لجنة البيان العربي ، ص : ٣٥٢ ـ ٣٥٤]

تعليق :

يشير ابن خلدون في هذا النص من المقدمة السادسة من الباب الأول الى موضوع بيولوجي هام يتصل بارتقاء الانواع واتصال بعضها ببعض وانشعاب بعضها عن بعض وهو ما ذهب اليه الارتقائيون Evolution-nistes بعد ذلك بشأن ارتقاء الانواع وتطورها .

وبالرغم من ان عدداً من المؤلفين العرب قد سبقوا ابن خلدون في الحديث عن فكرة تقسيم الكائنات إلى مراتب يتصل آخر كل مرتبة بأول

المرتبة التالية مثل الفارابي في « آراء أهل المدينة الفاضلة » والقزويني في « عجائب المخلوقات » وابن الطفيل في « حي بن يقظان » وابن مسكويه في « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » ، الا ان نظرة ابن خلدون إلى هذا التطور والاتصال كانت أكثر تطوراً من الناحية البيولوجية .

ذلك أن النظرة السابقة عند العلماء العرب قبل ابن خلدون رأت أن الرقي رقي في الرتبة فحسب ، ولذلك كان ترتيب الكائنات لديهم ترتيبا عقلياً منطقياً ، كما أن أحداً منهم لم يقل باستحالة هذه الكائنات بعضها إلى بعض .

اما ابن خلدون فقد قامت نظريته كما يتضح من النص على أن الارتقاء في الكائنات قائم على أساس عضوي بيلوجي ، كما انه قرر في عبارات صريحة أن الكائنات الاخيرة من كل مرتبة قابلة بطبعها لان تستحيل الى الكائنات الأولى من المرتبة التي تليها .[1]

النص الرابع
الشدة على المتعلمين مضرة بهم .

« وذلك أن ارهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم ، سيما في اصاغر الولد ، لانه من سوء المَلَكَة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطابه القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب نشاطها ، ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو الظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن

---

(١) انظر د . علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن ابن خلدون ، ص ص ٣١٦ ـ ٣٢٠ .

مودعة بخزائن الديوان مما ساعده وأعانه في كتابة مؤلفه الضخم « صبح الأعشى » .

وبالرغم من أن كتاب التراجم الذين تحدثوا عن القلقشندي تناولوه على نحو مجمل وسريع ، الا أنهم مع هذا ذكروا له عدداً كبيراً من الكتب والمؤلفات منها :

شرح لجامع المختصرات في فروع الشافعية ، وحلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم - وشرح على قصيدة بانت سعاد باسم « كنه المداد في شرح بانت سعاد » - ومقامة في تقريظ القاضي بدر الدين بن علاء الدين رئيس ديوان الإنشاء في ذلك الوقت باسم « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » - وكتاب « نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب » - وكتاب « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » - وكتاب « صبح الأعشى في صناعة الأنشاء » .

فالقلقشندي إذن رجل من أعظم بناة الثقافة العربية في العصور الوسطى ، عاش حياة حافلة في عصر المماليك أمضاها في العلم والعمل والدراسة والتأليف ، وترك مساهمته الواضحة في اثراء المكتبة العربية بمؤلفاته التي تناولت شتى الموضوعات. وأهم هذه المؤلفات كتابه المعروف باسم « صبح الأعشي في صناعة الأنشاء » .

وكتاب صبح الأعشي حشد من العلم والمعرفة التي تمثل ثقافة صاحب ديوان الإنشاء من ناحية ، والتي رآها من ناحية أخرى ضرورية لكاتب الديوان ، وعليه أن يحذقها جيداً ويقف فيها على أصول كل فن من فنونها . ثم هو في النهاية كشف عن تقدير حضاري للثقافة ودورها في رقي المواطن والدولة .

وكان القلقشندي قد وضع قبل « صبح الأعشي » رسالة موجزة بين فيها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد وما تقتضيه هذه الوظيفة من أصول ورسوم ، فلاقت هذه الرسالة استحسان أولى الأمر الذين أشاروا

عليه أن يبسط الكلام في هذا الموضوع ، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع في أصوله وفنونه ، فعكف القلقشندي على البحث والتأليف طوال عشرة اعوام مكثها في تأليف موسوعته ، واستعان في هذا التأليف بمختلف المكاتبات الرسمية التي كانت في الديوان إلى جانب العديد من المؤلفات الادبية والعلمية ، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة رتبها على مقدمة وعشر مقالات هي مادة الأربعة عشر مجلداً المعروفة بإسم صبح الأعشي في صناعة الإنشاء » . وتناولت المقالات ثقافة كاتب الإنشاء وثقافة الكاتب عامة الجغرافية والتاريخية والثقافة الديوانية وتحرير المكاتبات ومصطلحات الكتابة العربية والولايات والبيعة ومقالة في الوصايا والمسامحات ومقالة في الإقطاع والقطائع ومقالة في الإيمان ، ومقالة في كتب الأمان وتشمل عقود أهل الذمة وكتب الهدنة ، ثم المقالة العاشرة في كتب غير ديوانية .

وكتاب صبح الأعشي على هذا النحو الى جانب أنه معرض لآثار الكتابة الديوانية حتى زمن المؤلف فهو شرح للنظم الإدارية التي سارت عليها الدول الإسلامية ، ووصف لمصر من جميع نواحيها وعلاقاتها بالدول المرتبطة بها سياسياً واقتصادياً. وهو بيان لحال اللغة العربية في عصورها المختلفة ، وانتشارها في بلاد مترامية مثل الصين والهند والأندلس إلى جانب فارس والروم ، ودراسة لهذه اللغة التي نجحت في وقت قصير إلى أن تصير لغة الدين والأدب والعلم والحكم والسياسة .

ومن هنا اتسعت المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي في تأليفه لكتابه وتنوعت، فإلى جانب المحفوظات المصرية التي اضطلع عليها في ديوان الإنشاء والتي تمثل الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية خلال العصور المتعاقبة ، إلى جانب هذه المحفوظات ذكر القلقشندي عدداً من الكتب التي رجع إليها واعتمد عليها في تأليفه لموسوعته هذه ومن هذه الكتب التي تمثل من ناحية أخرى بتنوعها مدى ثقافة القلقشندي :

- ذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان .

- حسن التوسل في صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي .

- المثل السائر لابن الأثير .

- كتاب الصناعية لأبي هلال العسكري .

- الملل والنحل للشهرستاني .

- كتاب قوانين الدواوين لابن مماتي .

- العقد الفريد لابن عبد ربه .

- حياة الحيوان للدميري .

- أدب الكاتب لابن قتيبة .

- الأحكام السلطانية للماوردي .

- تقويم البلدان لأبي الفدا صاحب حماة

- المسالك والممالك لابن فضل الله العمري .

- عجائب المخلوقات لابن الأثير .

- فضائل العرب لابن أبي عبيدة .

- معالم الكتابة لابن شيث .

- المسالك والممالك لابن خرداذبة .

- صنعة جزيرة العرب للهمداني .

- معجم ما استعجم للبكري .

- تحفة الألباب ونخبة الاعجاب لأبي حامد الغرناطي .

ـ القانون المسعودي لأبي الريحان البيروني

ـ مختصر العجائب لابن وصيف شاه .

وغيرها كثير من الكتب التي احتاج اليها في موسوعته التي تناولت الأدب والكتابة والأنساب والجغرافيا والتاريخ وغيرها .

قلنا من قبل إن كتاب صبح الأعشى ينقسم إلى مقدمة وعشرة ابواب . أما المقدمة فهي في الواقع مؤلفاً أدبياً رائعاً شغل من الجزء الأول مائة وأربعين صفحة تناول فيها القلقشندي فضل الكتابة ومدح أفاضل الكتاب ، وتحديد مصطلح الكتابة والإنشاء مرجحاً النثر على الشعر في هذه الصناعة ، ثم تناول آداب الكتابة وصفات الكاتب وآداب المهنة وتحدث في لمحة تاريخية عن تاريخ ديوان الإنشاء منذ نشأته .

وتكشف هذه المقدمة عن احاطة المؤلف بموضوعه وتفهمه للمنهج الذي اعتمده في تناول هذا الموضوع وحرصه على تحري الدقة والأمانة في عرضه لجهد السابقين . فقد بدأ المؤلف مقدمته ببواعث مؤلفه هذا وأهمية البواعث والمؤلف نفسه بقوله : « لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها . . . لاسيا كتابة الإنشاء التي لا يلتفت الملوك إلا إليها ، ولا تعول في المهمات الا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها . . . وكانت الديار المصرية أعز الله حماها . . لم يزل يعلو قدرها ، ويسمو ذكرها إلى أن صارت دار الخلافة العباسية وقرار المملكة الإسلامية . . . وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك . . . وحوت من أهل الفضل والأدب بما لم يحو قطر من الأقطار . . . استخرت الله في كتابة هذا التاريخ » .

وفي تقسيم المؤلف لكتابه إلى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ما يدل على توافر منهج التنسيق والتنظيم والحرص على الإلتزام بخطة بحث مرتبة متصلة . ليس هذا فحسب بل إننا نرى في داخل المقالة الواحدة الأبواب

نماذج من كتاب صبح الأعشى

في الكتابة وفضلها

(١)

وذلك أن كل ذي صَنْعة لا بد له في معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة ، وآلة تؤدي إلى تصويرها ، وغرض ينقطع الفعل عنده ، وغاية تُسْتَثْمَر من صنعته. والكتابة إحدى الصنائع فلا بدَّ فيها من الأمور الأربعة :

فمادتها الألفاظ التي تخيَّلها الكاتب في أوهامه ، وتَصوَّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورةً باطنة تامة في نفسه بالقوة ، والخَطُّ الذي يخطه القلم ، ويقيد به تلك الصُّورَ . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة وآلتها القلم . وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييدُ الألفاظ بالرسوم الخطية ، فتكمل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب ، وتحفظ صُوَره ، ويؤمَن عليه من التغير والتبدل والضَّياع . وغايتها الشيء المستثمر منها ، وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة ، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسمية في أمور الدين والدنيا .

ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب ، وقع الحض من الشارع عليه ، والحث على الإعتناء به تنبيها على أن الكتابة من تمام الكمال ، من حيث أن العمر قصير والوقائع متسعة ، وماذا عسى أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصّله في ذهنه .

قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر « أُكْتُبْ شِعري ، فالكتابُ أعجبُ إلي

والفصول المرتبطة بعضها والمتممة بعضهاالبعض. فنراه في المقالة الأولى وجزء من المقالة الثانية يتحدث عن ثقافة كاتب الإنشاء فيقسمها قسمين كبيرين هما الأمور العلمية والأمور العملية. أما الأمور العلمية فتتألف من علوم العربية كاللغة والنحو والصرف وغيرها وعلوم أنساب العرب والعجم ، وعلوم تواريخ الأمة العربية والأمم الأخرى وعلوم المسالك والممالك وتشمل الثقافة الجغرافية وعلوم لغات الأعاجم وفن الوصف وما يتصل به من قدرة تميز في الإنسان والحيوان والدواب والوحوش والطير والآلات على اختلافها والأحجار الكريمة .

أما الأمور العملية فتتألف من معرفة فن الخط العربي من حيث فصيلته وتاريخه وتحسينه وهندسة الحروف وطريقة امساك القلم واستخدام الدواة وأنواع الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء وصورة الحزوف وضبط الكلمات بالشكل وغيرها مما يتصل بفن الخط .

ويتناول القلقشندي كل جزء من هذه الأجزاء بالدرس والشرح والتفصيل ، حتى إذا انتهى من الجزء انتقل الى الآخر وهكذا .

ولأهمية صبح الأعشي المصدرية خاصة فيما أورده من الوثائق والنصوص الرسمية التي تلقي الضوء على تاريخ مصر الإداري في عصور الخلفاء والسلاطين ، وعلى السياسة الخارجية لمصر ، والتي شغلت المقالتين الرابعة والخامسة في نحو ثلاثة مجلدات من منتصف المجلد السادس إلى أواخر المجلد الثامن ، لهذه الأهمية ترجمت منه مجموعة من هذه الوثائق الى الفرنسية كما ترجمت مختارات أخرى منه إلى الفرنسية والألمانية .

وقد أخرجت دار الكتب المصرية الكتاب في أربعة عشر مجلداً ما بين سنوات ١٩٠٣ ـ ١٩١٩ ، وإن كانت الطبعة خالية من الفهارس التي تعين الباحث وتوفر له مشقة التنقيب في هذا المصدر الجليل .

١ ـ ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الجزء السابع .

٢ ـ أحمد أمين : ضحي الأسلام ، الجزء الأول .

٣ ـ د . أحمد عزت عبد الكريم بالاشتراك مع آخرين :

ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشي .

٤ ـ السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الجزء الثاني .

٥ ـ القلقشندي : صبح الأعشي في صناعة الأنشاء .

٦ ـ د . عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الأعشي .

من الخفظ . إن الأعرابي لينسى الكلمه قد سهرتُ في طلبها ليلةً فيضع موضعها كلمة في وزنها لاتساويها . والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام » .

[صبح الأعشي ـ جـ ١ ـ ص ٣٦ ـ ط . دار الكتب ١٩١٣] .

(٢)

في التعريف بديوان الأنشاء

« لا خفاء في أنه اسم مركب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء . أما الديوان فإسم للموضع الذي يجلس فيه الكُتّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس في صناعة الكتاب، وفتحها خطأ قال : « وأصله دوان فابدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان ويجمع على دواوين .

واختلف في أصله ، فذهب قوم إلى أنه عربي . قال النحاس : « والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يُرجّع إليه ويُعمل بما فيه » ومنه قول ابن عباس : « إذا سألتُموني عَنْ شَيْءٍ من غَرِيب القرآن فالتمسوه في الشُعْر فإن الشعر ديوانَ العربَ » . ويقال دونّته أي أثبته وإليه يميل كلام سيبويه .

وذهب آخرون إلى أنه عجمي وهو قول الأصْمعي وعليه اقتصر الجوهري في صحاهه ، فقال الديوان «فارسى معرّب » وقد حكى الماوردي « في الأحكام السلطانية » في سبب تسميته بذلك وجهين . أحدهما : أن كسرى ذات يوم اطلّع على كُتّاب ديوانه في مكان لهم وهم يحسُبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أي مجانين فسمّي موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا ، فقيل ديوان وعليه اقتصر أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب . والثاني : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين وسمى الكتاب بذلك لحِذْقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي .

وأما الإنشاء فقد تقدم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأه واخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين :

أحدهما : أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه ونُبتدأ منه

والثاني أن الكاتب ينشيء لكل واقعة مقالاً

وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمها ، وربما قيل ديوان المكاتبات ثم غلب عليه هذا الاسم وشهر به واستمر عليه الى الآن » .

[جـ ١ ، ص ٨٩ - ٩٠] .

(٣)

في معرفة عادات العرب

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » للعرب ثلاث عشْرةَ ناراً .

الأولى نار المزدلفة وهي نار تُوقَد بالمُزدلفة من مشاعر الحج ليراها مَنْ دفع من عرفةَ . وأول من أوقدها قُصَيّ بن كلاب ، فهي توقَدُ إلى الآن .

الثانية نار الاستمطار ـ كانوا في الجاهلية الأولى إذا احتبس المطرُ جمعوا البقَرَ وَعقَدوا في أذنابها وعراقيبها السَّلَع والعُشَر ، ويُصَعّدون بها في الجبل الوَعْر، ويُشْعِلون فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر . قال الشاعر :

أَجَاعِلَ أَنْتَ بَيْقُوراً مُسَلَّعَةً   وَسِيلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ

الثالثة نار الحِلْف : كانوا إذا أرادوا عَقْد حِلْف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها ، ويذكُرون خيرها ، ويدعُون بالحِرْمان من خيرها على من نقض العهد ، وحل العقد . قال العسكري « وإنما كانوا يَخُصُّون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره » .

الرابعة : نار الطَّردْ ـ وهي نار كانوا يُوقِدونها خَلْف من يمضي ولا يحبون رجوعه .

الخامسة : نار الحرب ـ كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً أو قدوا ناراً على جبلهم ليبلغَ الخبرُ أصحابهم .

السادسة : نار الحرَّتين : كانت في بلاد عَبْس فإذا كان الليل تضيء

نار ستطع وفي النهار دخان مرتفع . وربما ندر منها عنق فأحرق من مر بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيُّ ، فدفنها ، فكانت معجزة له

السابعة نار السّعالي ـ تُرفع للمتقفّر فيتبعها فيهوى به الغُولُ على زعمهم .

الثامنة نار الصيد : وهي نار تُوقد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد : وهي نار توقد إذا خافوا الأسَدَ لينفر عنهم فإن من شأنه النفارَ عن النار ، يقال إنه إذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده .

العاشرة : نار القرى ـ وهي نار تُوقَد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا اليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقدون النار للملسوعَ إذا لُدِغ . يُساهِرونه بها ، وكذلك المجروح إذا نَزَف دمُه ، والمضروب بالسِّياط ، ومن عضَّه الكلب كي لا يناموا فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّيهم إلى الهَلَكة .

الثانية عشرة نار الفداء : كانَ الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت اليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب فيكرهون أن يَعْرضوا النساء نهاراً فتفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصَّفي ، فيوقدون النار تَعْرضهن .

الثالثة عشرة نار الوسم : وهي النار يَسم بها الرجل منهم إبله فيقال له ما سمة إبلك ؟ فيقول كذا .

[جـ ١ ، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠] .

(٤)

حسن الأفتتاح في المكاتبات

ويرجع حسنُ الافتتاح في المكاتبات الى معنيين :

المعنى الأول : أن يكون الحُسْن فيه راجعاً إلى المبتدأ به . إما بالافتتاح بالحمدُ لله كما في بعض المكاتبات : لأن النفوس تتشوّفُ إلى الثناء على الله تعالى ، أو بالسلام الذي جعله الشارع مفتتح الخطاب أو نحو ذلك .

وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب اليه : من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك . فإن أمر المكاتبات مبني على التملق واستجلاب الخواطر وتألف القلوب إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى على ما يقتضيه اصطلاحُ كلّ زمن في الابتداءات .

المعنى الثاني : أن يكون الحُسْنُ فيه راجعاً إلى ما يوجب التحسين : من سهولة اللفظ ، وصحة السبك . ووُضُوح المعنى ، وتجنب الحَشْو ، وغير ذلك من مُوجبات التحسين ، كما كتب الأستاذ أبو الفضل بنُ العميد عن رُكْن الدولة بن بُوَيه إلى مَنْ عصي عليه مفتتحا كتابه بقوله : « كتابي اليك ، وأنا متردِّد بين طمع فيك وإياسٍ منك ، وإقبالٍ عليك ، واعراض عنك ، فإنك تُدلُّ بسالف خِدَم ، أيسرُها يُوجب رعايه ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفَعُها بحادث غُلُول وخيانة ، وتُتْبِعها بألف خلاف ومعصية ، أدنى ذلك يُحْبِط أعمالك ، ويُسقِط كل ما يُرْعى لك » .

حـ ٦ - ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٥)

نص كتاب دوق البندقية ميخائيل
إلى الملك الناصر فرج بن برقوق

« السلطان المعظم ، ملك الملوك « فرج الله » ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه - يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ، لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك الإسلامية كلها ، وينهي ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان . وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الأسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس الغير في ثغر دمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس وزنجرهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهدلة بين حبوسهم والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا . وتعجبنا من ذلك ، لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا في جميع مملكتنا بكثرة عدله ، وبمحبته لطائفتنا ، واقباله عليهم ، وقولنا لجميع نوابنا : إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه .

والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم واكرامهم والاقبال عليهم . والنظر في أمورهم إذا حصل ما

يشبه هذا الأمر ، ومع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويترددوا إلى مملكته » .

[صبح الأعشي - جـ ٨ - ص ص ١٢٣ - ١٢٤] .

تعليق

هذه وثيقة من الوثائق الكثيرةالتي امتلأبهاصبح الأعشي . والوثيقة خطاب من دوق البندقية إلى السلطان الناصر فرج من سلاطين المماليك الجراكسة مؤرخة بتاريخ ١٦ من صفر ٨١٤ هـ (١٤١٢ م) يشير فيها الى حادثة اعتقال السلطان لقنصل البنادقة وتجارهم بالاسكندرية ، معتذراً فيه عما حدث وملتمساً في النهاية التوصية خيراً بهم ضماناً لإستمرار ترددهم على مصر .

كما تشير الوثيقة الى العلاقة الطيبة التي كانت بين مصر وبين البندقية التي كانت تهدف الى الكسب المادي الذي يعود عليها من انتظام الحركة التجارية بينهم وبين مصر ، خاصة وأنها وقفت موقفاً محايداً اثناء الحملات الصليبية حتى إنها رفضت تزويد حملة لويس التاسع بالسفن اللازمة لنقل المؤن والعتاد ، مما أدى الى زيادة توثيق هذه العلاقات بعد تقلص الفكرة الصليبية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (أواخر القرن الثامن الهجري) .

الباب الثاني

في

الصفات الخمسة

في المصنفات المتخصصة

تنوعت المصادر المتخصصة في المكتبة العربية بتنوع فروع العلوم العربية ، وهي فروع متعددة ومتسعة ومتشعبة .

ويمكننا بشيء من التقريب اختصار هذه العلوم العربية ومصادرها في المكتبة العربية إلى :

١ ـ مصادر الأدب والنقد والبلاغة العربية .

٢ ـ مصادر العلوم اللغوية .

٣ ـ مصادر العلوم الإسلامية والتصوف الإسلامي .

٤ ـ مصادر الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والإجتماع

٥ ـ مصادر التاريخ والجغرافيا .

٦ ـ مصدر العلوم التجريبية والرياضية .

٧ ـ مصادر التراجم والسير .

المصادر الأدبية والنقدية
وعلوم البلاغة العربية

عرفت المكتبة العربية التأليف الأدبي في فترة مبكرة ، منذ منتصف القرن الثاني الهجري ، وظهور الجاحظ وابن قتيبة ، ثم جيل المؤلفين بعدهما من أمثال المبرد وثعلب وابن عبد ربه وغيرهم .

والظاهرة التي تفرض نفسها على الباحث في مصادر التراث العربي ، هي أن جزءا كبيراً من هذه المصادر تشغله المكتبة الأدبية والنقدية والبلاغية .

والواقع أن اهتمام العرب بالمؤلفات الأدبية على هذا النحو راجع إلى الإهتمام بالشعر والأدب لأهميتها في حياتهم الوجدانية والعقلية والاجتماعية اولا ، ولأنه فن العربية الأول لشعب لم يكن لهم من فن سواه ثانيا وثالثا لأن الأدب فن العربية التي هي لغة القرآن وبها معجزته البلاغية .

ولم يكن لكلمة أدب عند العرب نفس الدلالة التي نستعملها الآن ، فقد دلت في عهد الرسول والخلفاء على التهذيب والرقي الأخلاقي ، واستخدمت في العصر الأموي بمعنى الشعر ، ثم اتسعت في العصر العباسي فأصبحت تعني كل ما يكتب أو يلفظ بشكل فني وتعبير جميل .

وفي هذا العصر اتسع مدلول الكلمة أيضاً ليشمل كل المعرفة الانسانية ، اذا عبر بشكل منظم متسق ، فكأنه بهذا المفهوم قريب من المأدبة التي تحوي كل ما لذ وطاب . وقد رأينا هذا الإستعمال من قبل في حديثنا عن المصنفات الموسوعية .

ونحن هنا بالمصنفات المتخصصة في الأدب ونقده ، تلك المؤلفات من التراث العربي ـ التي تناولت بالدرس أو جمعت مادة أدبية بمفهوم الشعر والنثر .

وتشمل هذه المصادر كتب المختارات الأدبية من شعر ونثر ، وكتب الأخبار الأدبية وهي قريبة من تاريخ الأدب الآن ، ثم كتب الدراسات النقدية والبلاغية .

فمن مصادر المختارات الشعرية نذكر :

- المفضليات للمفضل الضبي (ت ١٧٥ هـ) .

- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد الأنصاري (ت ٢١٤ هـ) .

- الأصمعيات للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ) .

- ديوان الحماسة للبحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤ هـ) .

- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات للأنباري ، أبو بكر محمد القاسم (ت ٣٢٨ هـ) .

ومن كتب الأمثال نذكر :

- أمثال العرب للمفضل المبي (ت ١٦٨ هـ) .

- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) .

- مجمع الأمثال للميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) .

ومن مجموعات الخطب والرسائل والمقالات نذكر :

- رسائل الجاحظ للجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

- رسائل الصاحب بن عباد للصاحب بن عباد .

- مقامات بديع الزمان الهمزاني :للهمزاني .

- مقامات الحريري للحريري

ومن مصادر كتب الأخبار الأدبية والتاريخ الأدبي نذكر :

- مجالس ثعلب لثعلب ، أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) .

- الموشي أو كتاب الظرف والظرفاء للوشاء ، أبو الطيب محمد بن اسحاق (ت ٣٢٥) .

- أدب الكتاب للصولي ، محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) .

- الأمالي للقالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ) .

- زهر الآداب وعز الألباب للحصري القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم (ت ٤١٣ هـ) .

ومن مصادر النقد الأدبي النظرية والتطبيقية نذكر :

- كتاب القوافي للأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، (ت ٢١٥ هـ) .

- طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ) .

- كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) .

- قواعد الشعر لثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) .

- كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ) .

- كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر .

- أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) .

- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ)

الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) .

- الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) .

- العمدة في صناعة الشعر لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) .

ومن مصادر الدراسات البلاغية نذكر :

- الفصاحة للدينوري (ت ٢٨٠ هـ) .

- الفصاحة للمرزباني (ت ٣٧٨ هـ) .

- البديع لإبن المعتز .

- أسرار البلاغة وكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني ، أبو بكر عبد الله (ت ٤٧١ هـ) .

- المفتاح للسكاكي ، أبو يعقوب (ت ٦٢٦ هـ) .

- التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩ هـ) .

مصادر العلوم اللغوية

اهتم المؤلفون العرب بدراسة اللغة العربيـة وجمعها وبحث قـواعدهـا المنـظمة حفـاظاً لهـا وحـرصـا عليهـا ، وهي لغـة القـرآن الكـريم ووسيلة اعجازه ، مما جعل لمصادر اللغة العربية أهمية كبيرة من وجهة نظر القدمـاء والمحدثين .

وتشمـل المصـادر التي تنـاولت البحث في علوم : وعـين من المصادر ، النوع الأول هو المعاجم ، والنوع الثاني هو كتب اللغة بما تحويـه من نحو وصرف ، ودراسة للعلاقة بين اللفظ والمعنى .

وفي تراثنا العربي العديد من معاجم الألفاظ نذكر منها :

- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) .

كتاب النوادر لأبي زيد الأنصاري ، سعيد بن أوس (ت ٢١٥ هـ)

- كتـاب الجمهرة في اللغـة لابن دريد ، أبـو بكر محمـد بن الحسين ، (ت ٣٢١ هـ) .

- كتاب الأضداد لابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٧ هـ) .

- المصباح المنير للمقري ، أحمد بن محمد (ت ٣٧٠ هـ) .

- الصحـاح ، تاج اللغـة وصحاح العـربيـة للجـوهـري ، أبـو نصـر اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) .

- أساس البلاغة للزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) .

- لسان العرب لابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .

- القاموس المحيط للفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٦ هـ) .

ونذكر من معاجم المعاني والتراكيب وكتب النحو :

- كتاب سيبويه لسيبويه ، أبو بشر عمرو (ت ١٨٠ هـ) .

- الإشتقاق للأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٧ هـ) .

- كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق (ت ٢٢٤ هـ) .

اصلاح المنطق لابن السكيت ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق (ت ٢٤٤ هـ) .

- الإيضاح في علل النحو للزجاج ، ابراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ) .

- جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ) .

- كتاب الإبدال لأبي الطيب عبد العال بن علي (ت ٣٥١ هـ) .

- التصريف . وكتاب سر صناعة الإعراب - وكتاب المنصف وكتاب الخصائص لابن جنى ، ابو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) .

- مقاييس اللغة لابن فارس ، أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥ هـ) .

- فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) .

- المخصص وكتاب المحكم لابن سيده ، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ) .

- كتاب أسرار العربيه وكتاب لمع الأدله في أصول النحو للأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ)

- الأشباه والنظائر في النحو ، وكتاب المزهر في اللغة والنحو للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)

مصادر العلوم القرآنية
والتصوف الإسلامي

لا يخفى أن أصل الأسلام الأول هو القرآن الكريم ، وهكذا أخذ العلماء والفقهاء في تدارسه وشرحه واستنباط الأحكام منه ، فأصبح القرآن مركزاً لعدد كبير من الدراسات التي تركت لنا عدداً هائلاً من المصادر الأولية .

وتنوعت العلوم التي تدرس القرآن ، فكانت هناك علوم مهمتها ضبط لفظ القرآن الكريم وظهرت معها كتب القراءات والتجويد والمصاني والمشكل. وكانت هناك علوم مهمتها تفهم معاني القرآن الكريم ، وظهرت معها كتب التفاسير وكتب الفقه وكتب الشواهد . واستعان المفسرون ومؤلفو كتب الفقه في الفهم والإحاطة بالحديث الشريف وبعلوم اللغة وغيرها من المصادر . وهكذا ظهرت علوم أخرى مهمتها دراسة السنة والحديث الشريف ومعها ظهرت كتب الأحاديث وأصول الدين وكتب الجدل .

ونتيجة لإتساع الدولة الإسلامية ودخول ديانات كثيرة في الإسلام تعرض الإسلام لمطاعن كثيرة من قبل الفرق الأخرى كالزنادقة والمعطلة والدهرية والباطنية وهكذا ظهرت الكتب التي تدافع عن الإسلام والمسلمين ورد مطاعن هذه الفرق . ويتصل بعلوم القرآن كذلك تلك الكتب التي بحثت في الزهد والتصوف في الأسلام .

فالمصادر هنا هائلة إذن من حيث الكم ، وكذلك من حيث التنوع والكيفية ، ما بين مصادر عامة عن الإسلام ومصادر عن القرآن وعلومه ومصادر عن الحديث الشريف وعلومه ومصادر الفقه والتشريع الاسلامي

ومصادر عن الفرق والطوائف الاسلامية وغيرها ثم مصادر التصوف الإسلامي .

فمن مصادر علوم القرآن المختلفة من معاجم ودراسات وتفاسير نذكر :

- مجاز القرآن لأبي عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ)

- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

- اعراب القرآن للزجاج ، ابراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ) .

- أساس التأويل للنعمان بن جيون (ت ٣٦٣ هـ) .

- بيان اعجاز القرآن للخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد (ت ٣٨٨ هـ) .

- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني (ت ٣٩٢ هـ) .

- اعجاز القرآن للباقلاني ، أبو بكر محمد الطيب (ت ٤٠٣ هـ) .

- كتاب التيسير في القراءات السبع للداني ، أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤ هـ) .

- المقنع في القراءات والتجويد للداني .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) .

- عيون الأقاويل في وجوه التنزيل للزمخشري .

- أحكام القرآن لابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٢ هـ) .

زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ، علي بن عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ)

- منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن لابن الجوزي

- املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن للعكبري ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦ هـ) .

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، أبو عبد الله محمد (ت ٦٧١ هـ) .

- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد (ت ٧٢٨ هـ) .

- التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لابن حيان ، أبو عبد الله محمد الأندلسي (ت ٧٥٤ هـ) .

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) .

ومن مصادر الحديث الشريف وكتبه نذكر :

- موطأ الإمام مالك لمالك بن انس (ت ١٧٩ هـ) .

- المسند للإمام الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن أدريس (ت ٢٠٤ هـ) .

- الجامع الصحيح للبخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .

- الجامع الصحيح لمسلم ،أبو الحسين بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) .

- تأويل مختلف الأحاديث لابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)

- صحيح الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عيسى الترمذي للترمذي ، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)

- السنن الكبرى للبيهقي ، ابو بكر احمد (ت ٤٥٨ هـ) .

- الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ) .

- جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير ، المبارك بن محمد (٦٠٦ هـ) .

- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .

- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر وشرحها لابن حجر ، احمد (ت ٨٥٢ هـ) .

- اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) .

ومن مصادر الفقه والتشريع الإسلامي نذكر :

- الرسالة للشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٢ هـ) .

- الأم للشافعي .

- تأويل الدعائم للنعمان بن حيون (ت ٣٦٣ هـ) .

- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن احمد (ت ٤١٥ هـ) .

- كتاب المعتمد في أصول الفقه لابن الطيب ، محمد بن علي (ت ٤٣٦ هـ) .

- احياء علوم الدين للغزالي ، أبو حامد (ت ٥٠٥ هـ)

- مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) .

- الأشباه والنظائر للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) .

ومن المصادر التي تحدثت عن الفرق والطوائف نذكر :

- المقالات والفرق للأشعري ، أبو الحسن (ت ٣٢٤ هـ) .

- الملل والنحل للشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٥٨ هـ) .

- كتاب سمط الحقائق في عقائد الإسماعيلية للوداعي ، علي بن حنظلة (ت ٦٢٦ هـ) .

ومن مصادر التصوف الإسلامي نذكر :

- الإشارات الالهية لأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) .

- الرسالة القشيرية للقشيري ، عبد الكريم (ت ٤٦٥ هـ) .

- المنقذ من الضلال للغزالي (ت ٥٠٥ هـ) .

- رسائل ابن عربي لابن عربي ، محي الدين ، (ت ٦٣٨ هـ) .

- الفتوحات المكية لابن عربي .

- نصوص الحكم لابن عربي .

- لطائف الأسرار لابن عربي .

مصادر الفلسفة
وعلم النفس والأخلاق والاجتماع

ظهرت هذه المصادر بعد أن هضم العرب الفلسفات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، وبعد أن قام المفكرون العرب بمحاولة استخدام الأفكار والقضايا التي طرحتها هذه الفلسفات وتعديلها بما يتناسب مع أساسيات الإسلام . ومن ثم نشأ الفكر الفلسفي الإسلامي ، كما نشأت الإتجاهات الفكرية والفلسفية العديدة والدراسات النفسية والأخلاقية .

كذلك اهتم مفكرو المسلمين بالمجتمع الإنساني ونظمه وفلسفة هذه النظم ، فبحثوا في السياسة والتشريع والقانون وغيرها من وجوه الفلسفة الإجتماعية .

ومن أهم المؤلفات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية في التراث العربي نذكر :

- رسائل فلسفية للرازي ، ابو بكر فخر الدين محمد بن زكريا (ت ٣١٠ هـ) .

- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، علي بن اسماعيل (ت ٣٢٤ هـ) .

- فلسفة أرسطوطاليس وأجزاء فلسفته للفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد (ت ٣٣٩ هـ) .

- فصوص الحكم للفارابي .

- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه ، أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ) .

- رسائل الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينافي أسرار الحكمة المشرقية لابن سينا ، أبو علي الحسين بن عبد الله (ت ٤٢٨ هـ) .

- الطبيعيات بكتاب الشفاء لابن سينا .

- الإشارات والتنبيهات لابن سينا .

- تهافت الفلاسفة للغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) .

- سراج الملوك للطرطوسي (ت ٥٢٠ هـ) .

- تدبير المتوحد لابن باجة ، أبو بكر محمد الأندلسي (ت ٥٣٣ هـ) .

- كتاب النفس لابن باجة .

- تهافت التهافت لابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) .

- ذم الهوى لابن الجوزي ، عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) .

- مقدمة ابن خلدون ، لابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد التونسي (ت ٨٠٨ هـ) .

ارتبط التدوين التاريخي وعلم التاريخ عند المسلمين في بدايته بالرسالة والرسول ، فقد كانت حياة الرسول وغزواته مادة تاريخية أجلها المسلمون واهتموا بها فيم سُمي بأيام العرب وعلم المغازي

ثم ما لبث علم التاريخ عند العرب أن تطور بعد أن جعل عمر بن الخطاب من الهجرة النبوية بداية للتاريخ السنوي ، بدأ المسلمون منه في التاريخ بالسنة والشهر واليوم ، وبعد أن اتسعت الفتوحات الاسلامية وما استتبعها من الإهتمام بتسجيل العهود والمواثيق مع سكان البلاد المفتوحة وما رافقها من فتوح وأحداث .

وقد ظهرت الكتابة التاريخية عند المسلمين أول ما ظهرت عن طريق رواية الخبر المسند ، وقد احتفظ الطبري في تاريخه بعدد من هذه الأخبار .

ثم اتسعت هذه الأخبار وتعددت كما نرى في كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، ثم ظهرت المؤلفات التاريخية الإسلامية العديدة منذ أوائل القرن الثالث الهجري في شتى فروع التاريخ وجوانبه .

وتدل المصادر التاريخية الماثلة التي تركها المؤرخون المسلمون على طبيعة الدور الحضاري الهام الذي قاموا به لتقييم أحداث العالم وحضارته في فترة ما قبل الإسلام ، وفي العصر الإسلامي حتى العصور الوسطى .

هذا وقد امتاز المؤرخون المسلمون في مؤلفاتهم بصدورهم عن حس تاريخي واضح ، وصدورهم عن ثقافة أدبية طيبة كذلك ، ولهذا فقد احتوت كتبهم إلى جانب مادته التاريخية على كثير من نصوص الأدب

والكثير من المعارف عنه وعن علومه وثقافته الى جانب الترجمة للكثير من أعلامه .

ومن المؤلفات التاريخية في تراثنا العربي نذكر :

- المغازي للواقدي (٢٠٧ هـ) .

- فتوح الشام للواقدي .

- فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) .

- تاريخ اليعقوبي لليعقوبي (ت ٢٧٨ هـ) .

- فتوح البلدان للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ) .

- الأخبار الطوال للدينوري ، ابو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) .

- تاريخ الطبري للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) .

- الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير للهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد (ت ٣٢٤ هـ) .

- نظم الجوهر في التاريخ لابن البطريق (ت ٣٢٨ هـ) .

- مروج الذهب للمسعودي ، علي بن الحسين ، (ت ٣٤٥ هـ) .

- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني (ت ٣٥٠ هـ) .

- تاريخ مصر للكندي (ت ٣٥٥ هـ) .

- تاريخ الأندلس لابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) .

ـ كتاب ... واخبار المذاكرة للتنوخي ، أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ) .

ـ تاريخ مصر وفضائلها لابن زولاق المصري (ت ٣٨٧ هـ) ولم يطبع بعد .

ـ كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم للمرعشي (ت ٤٢١ هـ)

ـ تجارب الأمم لابن مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد . (ت ٤٢١ هـ) .

ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ، أبو الحسن ، علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ) .

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية « لابن شداد (ت ٦٣٢ هـ) .

ـ الأعلاق الخطيرة في تاريخ الجزيرة لابن شداد .

ـ البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري المراكشي (ت ٧٠٠ هـ) .

ـ تاريخ الاسلام للذهبي (ت ٧٤٨ هـ) .

ـ البداية والنهاية لابن كثير ، اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) .

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) .

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

ـ عجائب المقدور في نوائب تيمور لابن عربشاه (ت ٨٥٤ هـ)

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي (ت ٩٣٠ هـ)

ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (ت ٩١١ هـ)

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري الأندلسي (ت ١٠٤١ هـ)

أما علوم الجغرافية ، فقد عرف العرب الجغرافية الفلكية والوصفية وجغرافية الطرق والمواصلات والبلدان منذ العصر الجاهلي ، حيث كانت جزءاً من ممارستهم الحياتية ، فعرفوا مواقع النجوم الثابتة والمتحركة ، وتغييرات الطقس ومواضع المياه والعشب وتعرفوا على النبات والحيوان

واحتفظ لنا القرآن الكريم بالكثير من المعارف الجغرافية عن الرياح والأمطار والنجوم والجبال والبحار وغيرها وحينما اتسعت الدولة الإسلامية بعد الفتوحات زاد الإهتمام بمعرفة طبيعة البلاد المفتوحة ، وقد نما هذا الإهتمام عندهم المترجمات الجغرافية التي اطلع عليها الجغرافيون. العرب عن اليونانية والهندية خاصة تلك الباحثة في الملاحة والفلك

وهكذا ازدهرت علوم الجغرافية التي حظيت بالعديد من المؤلفات العربية في فروعها المختلفة، فألفوا في الجغرافية الفلكية التي تبحث في الأفلاك ومواقعها ، وستحدث عن هذه المؤلفات عند الحديث عن مصادر لرياضيات ـ كما ألفوا في الجغرافية الوصفية في وصف البيئات والبلدان والحيوان والنبات ، وفي جغرافية الطرق والمواصلات وهي التي كانت تسمى عندهم المسالك والممالك ، وألفوا في جغرافية المدن وتاريخها وفي الجغرافية الإقتصادية والطبيعية والإجتماعية : كما اهتم الجغرافيون العرب بفن الخرائط ورسمها .

هذا وقد اهتم الأوربيون اهتماماً كبيراً بالمكتبة الجغرافية العربية بالتأليف عنها والترجمة ، ومن مؤلفاتهم فيها تاريخ الأدب الجغرافي العربي

لكراتشوفسكي وكتاب « مكتبة الجغرافيين العرب » للمستشرق هولندي « دي جويه »

ومن أهم المؤلفات الجغرافية العربية نذكر :

- صورة الأرض للخوارزمي ، محمد بن موسى (ت ٢٤٠ هـ)

- البلدان لليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب المصري (ت ٢٩٢ هـ) .

- المسالك والممالك لابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ) .

- صفة جزيرة العرب للهمداني ، الحسن بن أحمد (ت ٣٣٤ هـ) .

- التنبيه والاشراف للمسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ) .

- المسالك والممالك للأصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٥٠ هـ) .

- المسالك والممالك لابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٨٠ هـ) .

- « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي ، محمد بن أحمد (ت ٣٩٠ هـ) .

- الآثار الباقية في القرون الخالية للبيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ) .

- تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة « للبيروني » .

- المسالك والممالك للبكري ، عبد الله عبد العزيز القرطبي (ت ٤٨٧ هـ) .

- كتاب الجغرافيا للزهري ، محمد بن أبي بكر الغرناطي ، (٥٣٢ هـ) .

ـ برهة المشتاق في احتراق الأفاق للادريس ، أبـو عبد الله محمـد بن عبد الله (٥٦١ هـ) .

ـ رحلة ابن جبير لابن جبير ، أبـو الحسين محمد بن احمد (ت ٦١٤ هـ)

ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ، أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) .

ـ الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر للبغدادي ، عبد اللطيف (ت ٦٢٩ هـ) .

ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ) .

ـ تقويم البلدان لأبي الفداء ، اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ) .

ـ « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » للعمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩) .

ـ رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » لابن بطوطة ، أبـو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي . (ت ٧٧٩ هـ) .

ـ المواعظ والا عتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

مصادر العلوم التجريبية والرياضية

استطاع العرب أن يتعرفوا على المنجزات العلمية للثقافات الأخرى من هندية وفارسية ويونانية منذ فترة مبكرة ، منذ بداية حركة الترجمة ، فقد كانت هذه العلوم هي أوائل ما ترجم إلى العربية ، فتعرف العرب على علوم الطب والأقراباذية والعلوم السيمائية (الكيمائية) كما تعرفوا على علوم الرياضيات من حساب وهندسة وفلك .

ومن أشهر المترجمين وأفضلهم ، كان حنين بن اسحاق النصراني (ت ٢٦٠ هـ) الذي اشتغل بالترجمة عن اليونانية . وابن الداية، أحمد بن يوسف بن إبراهيم (ت ٣٤٠ هـ) . وابن وحشية (أبو بكر أحمد بن علي الكلداني ، أواخر القرن الثالث الهجري) .

ولم تلبث الحضارة العربية الاسلامية أن شهدت تفوقاً للعديد من العلماء في أكثر من ميدان من ميادين العلم ، وعرفت المكتبة العربية العديد من المؤلفات العلمية في سائر المعارف العلمية .

ففي علوم الطب والأدوية نذكر من المؤلفات العربية :

- الحاوي في الطب للرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣ هـ) .
- الطب المنصوري للرازي .
- الجدري والحصبة للرازي .
- فردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبري (ت ٢٤٧ هـ) .
- الكتاب الملكي أو « كامل الصناعة الطبية » لعلي بن عباس المجوسي (ت ٣٨٣ هـ) .

ـ القانون في الطب لابن سينا (ت ٤٢٩ هـ) .

ـ الكليات لابن رشد

ـ تقويم الصحة لابن بطلان ، أبو الحسن المختار بن الحسن البغدادي (ت ٤٥٨ هـ) .

ـ تذكرة الكحالين لعلي بن عيسى الكحال (قرن خامس هجري) .

ـ شرح أسماء العقار لموسى بن ميمون (ت ٦٠١ هـ) .

ـ الشامل في الطب لابن النفيس ، علي بن أبي الحزم القرشي (ت ٦٨٧ هـ) .

ـ تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي ، بن عمر (ت ١٠٠٨ هـ) .

ومن المؤلفات العربية في علم السيمياء (الكيمياء) نذكر :

ـ كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان .

ـ أسرار الكيمياء لجابر بن حيان .

ـ السموم ودفع مضارها لجابر بن حيان .

ـ سر الأسرار للرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣ هـ) .

ـ الماء الفضي القمري لمحمد بن أميل التميمي (توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)

ومن مصادر علوم النبات والحيوان والمعادن نذكر :

ـ عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) .

ـ كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري .

ـ كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، أبو بكر بن علي الكلداني (أواخر القرن الثالث الهجري)

ـ الجماهير في معرفة الجواهر للبيروني ، أبو الريحان محمد بن احمد (ت ٣٦٢ هـ) .

ـ القصد والبيان لابن بصال ، محمد بن ابراهيم بن بصال الأندلسي (ت ٤٩٩ هـ)

ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ) .

وفي مجال الرياضيات والفلك والبصريات نذكر من المصادر العربية

ـ الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي ، محمد بن موسى (ت ٢٣٢ هـ)

ـ الزيج الصابيء للبتاني ، محمد بن جابر بن سنان (ت ٣١٧ هـ) .

ـ النكت فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم لأبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) .

ـ كتاب المساحة والهندسة لأبي كامل شجاع بن أسلم (ت حوالي ٣٤٠ هـ)

ـ كتاب الجمع والتفريق لابن أسلم

ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروني (ت ٣٦٢ هـ)

ـ « كتاب التفهيم في أصول التنجيم للبيروني

ـ « صور الكواكب الثابتة للصوفي ، عبد الرحمن بن عمر بن سهل الصوفي الرازي (ت ٣٧٦ هـ)

- الزيج الكبير الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس ، لابن يونس المصري ، أبو الحسين علي بن عبد الرحمن (ت ٣٩٩ هـ) .

- كتاب زيج الصفائح لأبي جعفر الخازن ، محمد بن الحسين الخراساني (ت حوالي ٤٠٠ هـ) .

- كتاب الكافي في الحساب للكرجي ، محمد بن الحسن أبو بكر الكرجي (ت حوالي ٤٣٠ هـ) .

- كتاب الكرة والأسطوانة للحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) .

- كتاب المناظر لابن الهيثم .

- تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي (ت ٦٥٤ هـ) .

وكذلك ساهم العلماء العرب في مجال التأليفات الموسيقية النظرية ، ومن هذه المؤلفات نذكر :

- رسالة الكندي في اللحون والنغم للكندي ، يعقوب بن اسحاق بن الصباح (ت حوالي ٢٦٠ هـ) .

- الموسيقى الكبير لأبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) .

- الشفاء (الجزء الخاص بالموسيقى) لابن سينا ، أبو علي (ت ٤٢٨ هـ) .

- الكافي في الموسيقى لابن زيله ، أبو منصور الحسين بن محمد (ت ٤٤٠ هـ) .

- كتاب الأدوار في معرفة النغم والأدوار لصفي الدين الأرموي ، عبد النبي بن يوسف بن فاخر الأرموي البغدادي (ت ٦٩٣ هـ) .

- الرسالة الشرفية في النسب التأليفية لصفي الدين الأرموي .

مصادر التراجم والسير

ترك العرب عدداً هائلاً من كتب التراجم والسير ، وقد بدأت هذه المؤلفات منذ فترة مبكرة عندما حاول المؤلفون المسلمون تقصي أخبار الرسول وأعماله ، وما نتج عن ذلك من مؤلفات للرسول فيما عرف بكتب السيرة ، ومؤلفات أرخت للصحابة والتابعين فيما عرف بكتب الرجال والأنساب والطبقات ، عملاً بما جاء في حديث عن الرسول رواه السخاوي في كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو أن « من ورخ مؤمنا ، فكأنما أحياه » .

ويعتبر الواقدي صاحب المغازي من أوائل المؤلفين العرب في الطبقات أو التراجم (محمد بن عمر الواقدي ، توفي ٢٠٧ هـ) وأعقبه تلميذه محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ). ولم تلبث كتب التراجم أن تعددت واتسعت بعد ذلك ، فكان بعضها تراجم عامة كالفهرست لابن النديم ومعجم الأدباء لياقوت وبعضها تراجم متخصصة بعضها لعلماء اللغة والنحو ، وبعضها للفقهاء والمحدثين وبعضها للصوفية وبعضها للفلاسفة والأطباء وبعضها للأدباء والشعراء ، كما ألف العرب كذلك في تراجم الأعلام من الحكام والملوك والخلفاء والوزراء .

فمن المؤلفات التي ترجمت للفلاسفة أو الحكماء والأطباء :

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨ هـ) .

- تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ، ظهر الدين .

ومن كتب تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتصوفة :

- التاريخ الكبير في رجال الحديث للبخاري ، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ)

- غاية النهاية في طبقات القراء للجزري ، محمد بن محمد بن علي بن يوسف .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني ، أبو نعيم احمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ) .

- طبقات الصوفية للسلمي .

- طبقات الحفاظ للذهبي ، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) .

- كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي .

- طبقات الحنابلة وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ، (ت ٧٩٥ هـ) .

- لسان الميزان لابن حجر ، احمد (ت ٨٥٢ هـ) .

- تهذيب التهذيب لابن حجر .

ومن المؤلفات التي ترجمت للغويين والنحاة :

- طبقات النحويين والبصريين للسيرافي .

- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (قرن رابع هجري) .

- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي .

- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (ت ٦٤٦ هـ) .

- بغية الوعاة للسيوطي (ت ٩١١ هـ) .

ومن كتب التراجم التي ترجمت للأدباء والشعراء :

- المؤتلف والمختلف للآمدي ، أ. ...سم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ) .

- معجم الشعراء للـ ...رزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) .

- ...ية الدهر للثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) .

- دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي ، ابو الحسن علي بن الحسن (ت ٤٦٧ هـ) .

- كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، أبو الحسن علي (ت ٥٤٢ هـ) .

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري (ت ٥٧٧ هـ) .

- جريدة القصر وخريدة العصر للعماد الأصفهاني ، محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) .

- معجم الأدباء لياقوت الحموي ، أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) .

ومن كتـ...ـب التراجم العامة ، وتراجم الأعلام :

- الفهـ...ـت لابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحاق (ت ٤٠٠ هـ) .

- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) .

- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (ت ٧٥٤ هـ) .

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) .

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) .

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي (ت ٩٠٢ هـ) .

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الدمشقي (ت ١٠٨٩ هـ) .

ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي .

ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني(ت ١٢٥٠هـ) .

ومن كتب التراجم التي تناولت سيرة الرسول عليه السلام والصحابة :

ـ كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ) .

ـ الإستيعاب في معرفة الصحاب « لأبي عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) .

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) .

ـ السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الملك (ت ٨٣٤ هـ) .

ـ الإصابة في تمييز الصحابة لأبن حجر ، أحمد (ت ٨٥٢ هـ) .

ومن تراجم سير الحكام والملوك والخلفاء نذكر :

ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي ، أبو عبد الله محمد بن فتوح (ت ٤٨٨ هـ) .

ـ كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة ، محمد بن محمد القرشي.

ـ الأشارة إلى من نال الوزارة لأبن منجب الصيرفي ، بو القاسم علي .

ـ كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس .

نماذج من المصادر المتخصصة

وسنحاول هنا أن نقف عند بعض المؤلفات المتخصصة في تراثنا العربي مراعين في هذا الاختيار تنوع التخصصات .

وهذه المصادر التي سنتناولها مرتبة تاريخيا هي :

١ - الرسالة للإمام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) .

٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) .

٣ - الزيج الصابىء للبتاني (٢٤٤ - ٣١٧ هـ) .

٤ - معجم الشعراء للمرزباني (٢٩٧ - ٣٧٨ هـ)

٥ - الفهرست لابن النديم (٣٢٠ - ٤٠٠ هـ) .

٦ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكوية (٣٣٠ - ٤٢١ هـ) .

٧ - فقه اللغة للثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) .

٨ - الأحكام السلطانية للماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) .

٩ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

للسيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ)

الرسالة للامام الشافعي

[١٥٠ - ٢٠٤ هـ]

الإمام الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ابن عبد مناف .

ولد سنة ١٥٠ هجرية ، واختلف الرواة في محل ولادته ؛ فقيل غزة بفلسطين وقيل عسقلان وقيل باليمن .

انتقلت به أمه وهو صغير بعد وفاة والده إلى مكة ، ومن مكة حفظ القرآن ودرس اللغة والشعر والأدب كما درس الحديث والفقه . وفي سنة ١٧٠ هـ وقبل أن يتمم عامه العشرين رحل الى المدينة واتصل بالامام مالك ودرس عليه كتابه الموطأ وظل ملازما للامام مالك حتى مات سنة ١٧٩ ، فرحل بعدها الامام الشافعي إلى العراق وأخذ عن محمد بن الحسن الشيباني فقه أصحاب الرأي . وقد أثر اتصاله وعلمه بفقه أهل الحديث وفقه أهل الرأي في نظرة الشافعي بعد ذلك في وجوب الاحتجاج بالسنة بجانب القرآن مما كان له أثره في ظهور علم أصول الفقه . كما قاده هذا إلى أن يكون لنفسه مذهباً خاصاً بين أصحاب الحديث الذين يجعلون عمادهم السنن والآثار ولا يأخذون بالرأي الا بقدر الضرورة وهؤلاء على رأسهم مالك بن أنس وأصحابه بالمدينة ومصر ، وبين أهل القياس والرأي الذي يعتمدون إلى جانب القرآن والسنة وبعدهما على اعمال العقل ودقة النظر والأخذ بالقياس ، وهؤلاء بالعراق وما حولها .

فحاول الامام الشافعي أن يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين فرأى أن يأخذ بالقياس في غير اسراف على أن يكون له سند من الكتاب والسنة .

وأخيراً استقر الامام الشافعي بمصر وظل بها حتى وفاته .

وللإمام الشافعي العديد من المؤلفات التي ألفها في مكة وبغداد ومصر. بعض هذه المؤلفات رسائل صغيرة في أبواب الفقه ، والبعض الآخر كتب في موضوعات الفقه كذلك . ومن هذه الكتب التي ذكرها الرواة والمترجمون ، كتاب الحجة الذي كتبه في الرد على العراقيين أصحاب الرأي ، وكتاب الرسالة ، وكتاب اختلاف الحديث ، وكتاب السنن ، والمجموعة الفقهية الكبرى التي تسمى الآن « الأم » ومن الأرجح أن كتاب الأم في مجموعه عدد من رسائله كتب بعضها وأملى بعضها وأكمل تلاميذه بمصر بعضها . وتضم هذه الرسائل كل أبواب الفقه من عبادات ومعاملات ، كما تضم أبحاثاً في علم أصول الفقه وعلم الحديث . والأرجح أن الذي أطلق على الكتاب هذه التسمية هو تلميذه الربيع بن سليمان المرادي المصري الجيزي .

هذا ويعتقد بعض الباحثين أن للشافعي مذهبين : مذهب عراقي ومذهب مصري . ولكن الواقع أن الشافعي كان كثير التدبير فيما يكتب ، ولذلك كان يعيد ويعدل عن كثير منه ولهذا فتعد آراؤه الفقهية بمصر ناسخة لتلك التي كانت بالعراق . يقول محمد بن مسلم بن واره الرازي لأحمد بن حنبل - كما يذكر ابن ابو حاتم الرازي في كتابه آداب الشافعية - يقول : ما ترى في كتب الشافعي ، التي عند العراقيين أحب إليك أم التي بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التي وضعها بمصر . فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يُحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك .

أما رسالة الامام الشافعي ، فهو أهم مؤلفاته باجماع الذين ترجموا له ، حتى إنه أصبح بها عندهم الواضع لعلم أصول الفقه .

والرسالة التي بين أيدينا الآن هي الرسالة الجديدة التي كتبها بمصر ، فقد عرفت عنه بالعراق رسالة أخرى كتبها بمكة وهو شاب ، أعاد النظر فيها حتى أصبحت على النحو الذي بين أيدينا الآن .

والرسالة كتاب في أغلب مسائل الفقه من خلال البحث في معاني القرآن والسنة ومقبول الأخبار فيها والاجماع وحجته ثم الرأي والاجتهاد .

بدأ الشافعي رسالته بمقدمة تحدث فيها عما يجب على طالب العلم من بلوغ غاية الجهد في الاستكثار من علم القرآن نصاً واستنباطاً لأنه كتاب جمع الله فيه ما أحل وما حرم وما يجب علينا مما افترضه ، وما نستحقه مما وعدنا .

وبعد ذلك تناول الأمام الشافعي مباحث رسالته ، فبدأها ببحث في كيفية بيان كتاب الله فيما جاء به من أحكام العبادات والمعاملات ، مقسماً مراتب البيان الى خمس مراتب أولها ما أبانه الله لخلقه نصا يليه ما أحكم الله فرضه بكتابه وبين كيفيته الرسول ثم ماسن رسول الله عليه السلام مما ليس فيه كتاب يليه اجتهاد القياس على القرآن والسنة .

وبعد أن أتم حديثه عن البيان وتعريفه . وكيفيته ومراتبه تكلم عن النسخ والمنسوخ والحكم في ذلك . ثم عن العلل في الأحاديث حيث تناول الأحاديث التي نجد مثلها في القرآن نصا ، والتي نجد مثلها في القرآن جملة والتي جاءت بأكثر مما في القرآن والتي ليس منها شيء في القرآن . وتحدث الشافعي بعد ذلك عن العلم ومايجب على الناس فيه ، فيقسمه إلى علم عامة مثل الفرائض وتحريم الزنا والقتل ؛ فهو موجود نصا في القرآن وعاماً عند المسلمين وليس فيه متنازع ولا تأويل . وعلم أحكام فروع الفرائض وغيرها مما ليس فيه نص قرآن ولا في أكثره نص سنه وهذه الدرجة من العلم لا تبلغها العامة وهي محل التأويل والاختلاف .

وتناول الشافعي بعد ذلك خبر الواحد والحجة في تثبيته ، ثم حجية الإجماع .

بعد ذلك تناول الشافعي القياس باعتباره أصلاً من أصول الفقه بعد الكتاب والسنة والإجماع، فتحدث عن شروط القياس الصحيح ومن يجوز له

شرعاً أن يقيس ومن يصح منه الاجتهاد. ورأى الشافعي بالاستحسان فيما لا يخالف الخبر والكتاب أوالسنة. ذلك أن كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بينا لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه ». ثم تحدث عن اختلاف الصحابة في بعض مسائل الميراث ورأى أن الأوفق رد هذه الآراء إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الاجماع أو كان أصح في القياس .

ويختم الشافعي رسالته بتأكيد ما سبق وبحثه في أول الكتاب من أن البيان أو أصول الفقه ليس في مرتبة واحدة . بل لكل مرتبة معلومة وانها حسب أفضليتها الكتاب والسنة المجتمع عليها والتي لا اختلاف فيها والسنة من طريق الإنفراد ثم الاجماع فالقياس وهو الأضعف ولكنها منزلة ضرورية .

وقد طبع الكتاب أكثر من طبعة، طبع أولاً بالمطبعة العلمية ١٣١٢ هـ وبتصحيح يوسف صالح محمد الجزماوي ، وطبع مرة أخرى بالمطبعة الشرقية ١٣١٥ هـ وطبع بمطبعة بولاق ١٣٢١ هـ . وطبع طبعة محققة عام ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠) بتحقيق وشرح الشيخ أحمد شاكر .

مصادر ومراجع

- ابن أبي حاتم الرازي : آداب الشافعي ومناقبه .
- ابن حجر : توالي التأسيس .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ .
- ابن النديم : الفهرست .
- الشافعي : الرسالة .
- مصطفى الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية .

نماذج من الرسالة للشافعي

(١)

« والنـاس في العلم طبقـاتٌ ، مـوقعهم من العلم بِقَـدْر درجـاتهم في العلم بـه . فحُقٌّ على طَلبـة العلم بلوغُ غـايـةِ جُهـدهـم في الإستكثـار مِنْ عَلمـه ، والصبرُ عَـلَى كـل عـارضٍ دونَ طلبـه ، وإخـلاصُ النيـة لله في استدراك علمه : نصا واستنباطاً ، والرغبةُ إلى الله في العَوْنِ عليه ، فإنَّه لا يُدْرَكُ خيْرٌ الاّ بعونِهِ .

فإنّ من أدرك علمَ احكام الله في كتـابه نصـا واستدلالا ، ووفَّقـهُ اللهُ للقولِ والعمل بمـا عَلِمَ منه : فـاز بالفضيلة في دينـه ودنياه ، وانْتَفَتْ عنـه الرِيَبُ ، ونَوَّرَتْ في قلبه الحكمةُ واستوجَبَ في الدين موضع الإمامة .

[ص ١٩ ـ ط . مكتبة الحلبي بتحقيق شاكر ـ ١٩٤٠] .

(٢)

« كلُّ ما سَنَّ رسول الله مع كتاب الله من سُنَّةٍ فهي موافقةٌ كتـاب الله في النصِّ بمثله ، وفي الجملة بالتبيين عن الله ، والتبيينُ يكون أكـثر تفسيراً من الجملة . وما سَنَّ مما ليس فيه نصُّ كتاب الله فبفرض الله طاعتَه عامـةً في أمره تبعْناهُ . وأما الناسخةُ والمنسوخة من حديثه فهي كما نسخ اللهُ الحكم في كتابه بالحكم غيرهِ من كتـابه عـامةً في أمـره ، وكذلـك سنةُ رسـول الله تُنْسَخ بسنَّته .

فأما المختلفةُ التي لا دلالة على أيُّها ناسخٌ ولا أيُّها منسوخ فكل أمره مُوتَفِقٌ صحيحٌ لا اختلاف فيه . .

[ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣] .

(٣)

« أخبرنا مالكٌ عن ابن شهاب عن عُروة عن عبد الرحمن بن عبد القاريِّ قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب يقول : سمعتُ هشامَ بنَ حكيم بن حِزام يقرأُ سورةَ الفُرْقانِ على غير ما أقرؤُها ، وكان النبيُّ أقْرَأنيها ، فكِدْتُ أعجلَ عليه ، ثم أمهلْتُه حتى انصرفَ ثم لَبَّبْتُه بردائه ، فجئت به الى النبي ، فقلتُ : يا رسول الله ، إني سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ؟ فقال له رسولُ الله : اقرأ . فقرأ القراءة التي سمعتُهُ يقرأ ، فقال رسولُ الله : هكذا أُنزلتْ ، ثم قال لي : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أُنزلتْ .

إن هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعة أَحْرُفٍ ، فاقرؤُا ما تَيَسَّر » .

قال الشافعي : فإذا كان الله لرأفته بخلقه أنزلَ كتابه على سبعة أحرف ، معرفةً منه بأنَّ الحِفْظَ قد يَزِلُّ ، ليُحِلَّ لهم قراءتَهُ وإن اختلف اللفظ فيه ، ما لم يَكُنْ في اختلافهم إحالةُ معنى كان ما سِوَى كتابِ الله أولى أن يَجُوزَ فيه اختلافُ اللفظِ ما لم يُحِلْ معناهُ » .

[ص ص ٢٧٣ - ٢٧٤] .

الشعر والشعراء لابن قتيبة

[٢١٣ - ٢٧٦ هـ]

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الديوري . وابن قتيبة فارس الأصل ، عمل فترة بقضاء دينور فنسب إليها .

ولد ابن قتيبة من أبوين معربين في الكوفة أو بغداد على اختلاف بين مترجميه ، وقضى معظم حياته في بغداد ، وفيها أخذ عن علمائها علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار ومن شيوخه الذين أخذ عنهم أبو الفضل الرياشي وعبد الرحمن بن عبد الله بن قريب وابراهيم بن سفيان الزيادي وأبو حاتم السجستاني واسحاق بن راهويه ، وكانوا من كبار علماء عصره في اللغة والنحو وعلوم القرآن والأدب :

ولم يمكث ابن قتيبة في وظيفته كقاضي دينور مدة طويلة على الأرجح - فقد عاد الى بغداد وظل بها يؤلف ويدرس اتجاهه اللغوي النحوي الذي مزج فيه بين المذهبين الكوفي والبصري حتى مات حوالي عام ٢٧٦ هـ .

واشترك ابن قتيبة في الصراع العقائدي والصراع الجنسي سمتي القرن الثاني ،فدافع إلى جانب أهل السنة ضد المعتزلة ودافع ضد الشعوبية إلى جانب العرب

وهكذا كان ابن قتيبة من خير النماذج التي تمثل ثقافة القرن الثاني الهجري أصدق تمثيل ، وقد أتضح هذا في مؤلفاته العديدة التي تناولت جميع معارف عصره ، والتي تكشف لنا عن عقلية مصقولة منظمة ، وثقافة متسعة ، حتى إن الرواة يذكرون له ما يقرب من ثلثمائة كتاب في شتى

أنواع المعارف ، وإن لم يصلنا من هذه المؤلفات سوى أقل من عشرين مؤلفاً منها ما هو مشكوك النسبة اليه ككتاب الإمامة والسياسة

ومن هذه المؤلفات

كتاب الأنواء - كتاب المعاني الكبير - مشاكل القرآن - غريب القرآن - تأويل مختلف الحديث - كتاب الميسر والأقداح - كتاب الأشربة - كتاب العرب - كتاب الشعراء والشعراء - كتاب أدب الكاتب - كتاب عيون الأخبار - كتاب المعارف - كتاب النعم والبهائم - كتاب المسائل والأجوبة .

أما كتاب الشعر والشعراء فهو من أهم ما كتب ابن قتيبة في النقد والأخبار والأدب .

والكتاب قسمان ، القسم الأول في الشعر وهو المقدمة تحدث فيها عن الشعر وأقسامه وعيوبه .

والقسم الثاني وهو الشعراء ترجم فيه لعدد كبير من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي الأول حتى منتصف القرن الثالث الهجري.ومنهجه في هذا أنه يذكر الشاعر ونتفاً من أخباره ثم يذكر شيئاً من شعره ليس بالقليل معقبا عليه بالشرح والتعليق .

وقد عالج ابن قتيبة في مقدمته عدداً من القضايا النقدية الهامة ، فتحدث عن قضية الشكل والمضمون في العمل الأدبي والتقاليد الأدبية وأثرها في بناء القصيدة العربية والفرق بين الصنعة والطبع في الشعر ، ومفهوم القديم والحديث والنظر إلى الشعر في ضوئه، كما تناول في هذه المقدمة العيوب المتعلقة بالشعر .

نظر ابن قتيبة الى الشعر فوجده أربعة أضرب هي على الترتيب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه ولم يكن لمعناه فائدة ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه ، وقدم ابن قتيبة نماذج شعرية لكل ضرب منها محاولاً ايجاد العلل والأسباب في تفسير أحكامه الفنية .

وحاول ابن قتيبة حينما نظر في القصيدة العربية أن يضع أساساً نفسيا لبناء القصيدة العربية وفق تقاليد أدبية متعارفة ، فرأى أن « مقصد القصيدة إنما ابتدأ بذكر الديار ومخاطبة الدمن ، فبكى وشكا واستوقف الرفيق ذاكراً أهلها الظاعنين عنها لأن أهل الوبر ينتجعون مساقط الغيث على خلاف ما عليه نازلة المدر . ثم خلص من ذلك إلى إظهار شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه الوجوه ويجتذب الأسماع » .

فالصلة في بداية القصيدة بالتشبيب عند ابن قتيبة أن « التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء » . فإذا استوثق الشاعر من الإصغاء إليه كما يرى ابن قتيبة عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح » .

لقد استطاع ابن قتيبة هنا كناقد أن ينظر للتقاليد الأدبية المتبعة في بناء القصيدة الشعرية من خلال خبرة فنية توافرت لديه . وهو لا يكتفي برصد هذه الظاهرة بل يأخذ في تفسيرها تفسيراً يعتمد على مفهوم نفسي في النظر الى عملية الخلق الأدبي ، فالشاعر إنما بدأ بالنسيب بما فيه الوقوف على الأطلال لأن الطلل والمرأة ظاهرة حياتية هامة في وجدانه ، ولأنه بهذا يجذب الإصغاء والإنصات ليكون أقدر على استدعاء المشاركة الوجدانية عند المتلقي ، فإذا قدر هذا انتقل الى سائر أجزاء قصيدته من وصفه للرحلة والراحلة حتى يصل الى المدح في النهاية .

وقد رأى ابن قتيبة بعد ذلك ضرورة التناسب بين هذه الأجزاء فلا يجوز أن يطغى منها جزء على جزء فيطيل الشاعر في أحد الأجزاء على

حساب الأخر مما يدفع السامع إلى الملل الذي لا يطلب معه مزيداً من سماع .

والشعر عند ابن قتيبة ينقسم قسمين ، فمنه المتكلف ومنه المطبوع ، ويرى ابن قتيبة في هذا الصدد أن الشعر أحياناً يكون جيداً محكماً . فتمسخه الصنعة وتذهب بطلاوته .

وقد لاحظ ابن قتيبة بحسه الفني أن الشعراء يختلفون في الطبع تبعا لنزوعهم وميولهم ، ثم حاول أن يذكر خصائص شعر الطبع وخصائص شعر الصنعة ، فالشاعر المطبوع هو الذي يندفع عن السليقة والطبع . فيعبر من خلالهما الشاعر عن خوالج النفس في غير تقصير ولا استكراه . أما الشعر المتكلف ، فنحسه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين .

وحينما نظر ابن قتيبة إلى الصراع بين القديم والجديد وأثر هذه النظرة في قبول الشعر ورفضه ، رأى ابن قتيبة أن الانصاف يستوجب وضع كل شاعر في مكانته التي يستحقها دون نظر إلى عصره فلم « يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره » . وإن أوجب على الشعراء المحدثين الإلتزام بالتقاليد الأدبية المعروفة .

وفي نهاية المقدمة ذكر ابن قتيبة عيوب الشعر فجعلها قسمين : قسماً خاصاً بالموسيقى وقسماً خاصا بالنحو . ومن عيوب الموسيقى لديه ، الإقواء (اختلاف حركة الروى) والسناد (اختلاف ارداف القوافي) . والايطاء (اعادة القافية مرتين) .

أما عيوب الاعراب فكثيرة منها تسكين ما كان ينبغي تحريكه وعدم صرف المصروف وهمز غير المهموز

وبعد أن انتهى ابن قتيبة من الجزء الأول وهو مقدمة في الشعر ، أخذ

في ذكر الشعراء . والملاحظ أن ابن قتيبة لم يتبع منهجاً خاصاً في ترتيبه للشعراء فيقدم شعراء خاملين على لامعين ويقدم شعراء على من هم أقدم منهم ، ولم يتبع ترتيبا أبجديا في عرضه لشعرائه . وإن ربط في بعض الأحيان بين الشعراء الذين تربطهم صلة قرابة .

وطريقة ابن قتيبة في ترجمته للشاعر انه يبدأ بذكر اسم الشاعر وبعض أخباره ، ثم يذكر مختاراته لشعره ، وذلك على نحو اجمالي ، يعود مرة أخرى الى تفصيله .

وبذلك أصبح كتابه سجلاً قيماً لعدد كبير من الشعراء ، ومرجعاً لكثير من النصوص الشعرية وملابساتها ، ولكثير من آراء القدماء في الشعر والشعراء . بالاضافة الى القيمة النقدية الهامة لمقدمة كتابه على النحو الذي رأيناه .

وقد طبعت المقدمة « كتاب الشعر » سنة ١٨٧٥ في ليدن ، وطبع المستشرق « دي جويه » الكتاب بقسميه في ليدن سنة ١٩٠٢ ووضع له مقدمة باللغة اللاتينية .

ثم طبع الكتاب كاملا عدة طبعات شعبية بمصر ، حتى حققه الشيخ شاكر في طبعة جديدة سنة ١٩٤٥ وطبع بمطبعة عيسى الحلبي .

مصادر ومراجع

- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ ١ .
- ابن قتية : الشعر والشعراء .
ابن النديم : الفهرست .
- جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، حـ ٢ .
د . عبد الحميد سند الجنـدي : ابن قتيبة ، العالم الناقد الأديب .

نماذج من الشعر والشعراء

(١)

« ولم يَقْصِر اللهُ العلمَ والشعرَ والبلاغةَ على زمن دون زمن ، ولا خَصَّ به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره ، وكلُّ شرفٍ خارجية (الخيل التي لا عرق لها في الجودة) في أوّله ، فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدون محدثين . وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول : لقد كَثُر هذا المحدَثُ وحَسُنَ حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بِبُعْدِ العهد منهم ، وكذلك يكونُ من بعدهم لمن بعدنا . . . فكلُّ من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه ، واثنينا به عليه ، ولم يَضَعْهُ عندنا تأخرُ قائله أو فاعله ، ولا حداثةُ سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

[ص ٦٣ - ص ـ١، ط . دار المعارف ١٩٦٦ - تحقيق احمد شاكر] .

تعليق

يتناول ابن قتيبة في هذا النص قضية أدبية هامة ، هي الصراع بين القديم والجديد موضحاً رأيه فيها .

وابن قتيبة من مناقشته للقضية يكشف عن وجهة نظر متقدمة في النظر إلى قضية صراع الأجيال . فالقديم في عصر كان جديداً قبله ، والجديد في عصر سيصبح قديما في العصر التالي . والمهم في العمل الأدبي ليس القديم والجديد زمنيا ، وإنما العمل الذي يظل جديداً في كل العصور ، والذي يشعر به كل عصر جزءاً من وجدانه ومن قيمه ، بل من حضارته .

(٢)

من أخبار النابغة الذبياني

هو زيادُ بن معاوية ، ويكني أبا أُمامة ، ويقال أبا ثُمامة ، وأهلُ الحجاز يفضلون النابغة وزهيراً .

وقال شُعَيب بن صَخْرٍ : سمعتُ عيسى بن عُمر ينشد عامَر بنَ عبد الملك المِسْمَعيَّ شعر النابغة ، فقلت : يا أبا عبد الله ، هذا والله الشعرُ ، لاقولُ الأعشي :

لَسْنا نُقاتِلُ بالعُصِيِّ ولا نُرامِي بالحِجارَةْ

ويقال : كان النابغةُ أحسنَهم ديباجةَ شعرٍ ، وأكثرهم رونق كلامٍ ، وأجزَ لَهم بيتا ، كان شعرُه كلاماً ليس فيه تكلُّف . ونبغ بالشعر بعدما احتَنَكَ ، وهَلَكَ قبل أن يُهْتَرَ . قال : وكان يُقْوِي في شعره ، فعيب ذلك عليه واسمعوه في غناءٍ :

أمِنَ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتَدِ عَجْلانَ ذا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ
زَعَمَ البَوارِحُ أن رِحْلتَنا غداً وبذاك خَبَّرَنا الغُدافُ الأسْوَدُ

فَفَطِنَ فلم يَعُدْ .

[ص ص ١٥٧ ـ ١٥٨] .

(٣)

من أخبار الحطيئة

هـو جَرْوَلُ بن أوسٍ ، من بني قُطَيْعَة بن عَبْسٍ ، ولُقِّب الحطيئة لقِصَره وقُرْبه من الأرض . ويكنى أبا مُلَيكة ، وكان راوية زُهَيْر . وهو جاهلي اسلامي . ولا أراه أسلم الا بعد وفاةِ رسول الله ﷺ ، لأني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب ، إلاّ أني وجدتُه يقول في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه حين ارتدت العرب :

أطعنا رَسُولَ اللهِ إذا كان حاضراً   فيا لَهْفَتِي ما بالُ دينِ أبي بَكْرِ
أيُورِثها بكـراً إذا مات بَعْـدَهُ   فتلك وبيت اللهِ ، قاصِمةُ الظَّهرِ

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله « أطعنا رسول الله » قومه أو العرب ، وكيف ما كان فإنه كان رقيق الاسلام ، لئيم الطبع .

ومن المشهور عنه أنّه قيل له حين حضرته الوفاةُ : أَوْصِ يا أبا مُلَيكة ، فقال : ما لي للذكور (من ولدي) دونَ الإناث ، فقالوا : إن الله لم يأمر بهذا ، فقال : لكن آمُرُ به ، ثم قال : ويلٌ للشعر من الرواة السُّوءِ ، وقيل له : أوص للمساكين بشيء ، فقال : أُوصيهم بالمسألة ما عاشُوا ، فإنها تجارةٌ لن تَبُورَ . وقيل له : أعتق عبدك يساراً ، فقال : اشهدُوا أنه عبدٌ ما بقي عبسيٌّ . وقيل له : فلانٌ اليتيمُ ما تُوصى له (بشيء) فقال أوصى بان تأكلوا ماله . قالوا : فليس الا هذا ؟ قال احملوني على حمار ، فإنه لم يَمُتْ عليه كريمٌ ، لعلّي أنجو . ثم تَمثَّلَ :

لِكُـلِّ جَـديـد لَـذَّةٌ غَـيْرَ أنَّني   رَأيتُ جديدَ المَوْتِ غَيْرَ لَـذِيذِ
لـه خَبْطَةٌ في الخَلْقِ ليستْ بُسكَّرٍ   ولا طَعْمُ راحٍ يُشْتَهى وَنَبيـذِ

ومات مكانَه .

وكان هجا أمه وأباه ونفسه ، فقال في أمه :

تَنَحي فاقْعُدِي مِني بعيداً	أراحَ اللهُ منكِ العالمينا
أَلَمْ أُوضِح لَكِ البَغضاءَ مِني	ولكِنْ لا إخالُكِ تَعْقِلينا
أغِرْبالاً إذا اسْتُودِعتِ سراً	وكانوناً على المُتَحدثينا
جَزاكِ اللهُ شراً من عَجُوزٍ	ولَقّاكِ العُقوقَ مِنَ البَنينا
حَياتُكِ ما عَلِمْتُ حَياةُ سُوءٍ	وَمَوْتُكِ قد يَسُرُّ الصالحينا

وقال لأبيه :

جَمَعْتَ اللّؤْم ، لا حَيّاكَ رَبِّي | وأبوابَ السَّفاهَةِ والضَّلالِ

وقال لنفسه :

أَبَتْ شَفَتايَ اليومَ إلاّ تَكَلُّماً	بِسُوءٍ ، فما أدري لِمَنْ أنا قائِلُهْ
أرى لي وَجهاً شَوَّهَ اللهُ خَلْقَهُ	فَقُبِّحَ مِن وَجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

[ص ص ٣٢٢ - ٣ - ٣٢٤ حـ ١]

الزيج الصابيء للبتاني
(٢٤٤ - ٣١٧ هـ)

البتاني هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني الحراني ، ولد ببتان من نواحي حران بالعراق .

وبين الرقة على الفرات وانطاكية في سوريا عاش البتاني حياة علمية خصبة ، فدرس كتابي السندهند والمجسطي وهما من أمهات وأوائل الكتب التي ترجمت في الرياضيات والفلك ، ترجم الاول عن الهندية ، والثاني عن اليونانية . ولم يلبث البتاني أن دخل ميدان البحوث الفلكية ، وأنشأ مرصداً لابحاثه التي كان من أشهرها حساب طول السنة الشمسية ومقياس موضع أوج الشمس في مسارها الظاهري مصححاً بنتائج النتائج التي كان قد توصل اليها بطليموس من قبل .

كذلك أثبت البتاني احتمال حدوث الكسوف الحلقي للشمس ، وهو الكسوف الذي يختفي فيه وسط قرص الشمس ويبقى حلقه دائرة متوهجة مضيئة .

كما قام البتاني باعداد جداول جديدة لمواقع حركات القمر والكواكب بعد أن أعاد تحقيق مواقعها .

وللبتاني إلى جانب هذه التجارب الارصادية مؤلفات عديدة في الفلك والرياضة منها :

١ ـ كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك
٢ ـ شرح أربع مقالات لبطليموس .
٣ ـ رسالة في مقدار الاتصالات
٤ ـ كتاب تعديل الكواكب

٥ ـ الزيج الصابيء

وعلم الأزياج هو العلم الذي يبحث في حركة النجوم والكواكب في أفلاكها ما بين أبعد وأقرب نقطة للكوكب عن الأرض .

وزيج البتاني هو أشهر المؤلفات العربية في هذا المجال لأنه أول زيج يحتوي على معلومات صحيحة دقيقة وعلى أرصاد كان لها أثرها في علم الفلك طوال العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة عند العرب وفي أوربا .

والكتاب دراسة في القوانين الفلكية من خلال مقدمة وسبعة وخمسين باباً،درس فيها البتاني الكرة السماوية ودوائرها وقياس الزمن برصد ارتفاع الشمس ، وموضوع الكواكب (النجوم) الثابتة ومعرفة أوضاعها بالنسبة للدوائر السماوية ، وطول السنة الشمسية عن طريق الرصد الذي وجده ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و١٤ دقيقة و٢٦ ثانية . وقد اثبتت الحسابات الحديثة أن البتاني قد أخطأ في تقديراته بمقدار دقيقتين واثنتين وعشرين ثانية .

ثم تناول، بعد ذلك الاختلاف في حركة الشمس وعدم انتظام سرعتها بين يوم وآخر على مدار السنة ، وحركات القمر والكسوف والخسوف وبعد لشمس والقمر عن الأرض وأسباب أوجه القمر .

كذلك تناول البتاني الكواكب ومساراتها ، كما قدم دراسة للتقاويم المختلفة عند العرب والروم والفرس والقبط .

ثم درس منازل القمر وقسمها إلى ثمان وعشرين منزلة كما كانت عند العرب قبل أن يطلعوا على التقسيم الهندي ، ولكنه استخدم في تقسيمه الأصول الهندسية والفلكية .

ويبحث بعد ذلك مسار القمر ونقطتي تقاطعه مع مسار الأرض ورؤ ية

الهلال والخسوف وكذلك تناول كسوف الشمس وأحوال ومواضع وحركات المجموعات الشمسية . واختتم كتابة بباب عن ارصاداته التي قام بها للنجوم . وبابين خصصهما لوصف الآلات الفلكية وطريقة صنعها والأخطاء التي يمكن أن يقع فيها عالم الفلك .

هذا وقد اعتمد اغلب علماء الفلك بعد البتاني كتابه في الفلك هذا لحساباتهم الفلكية ولتأليفاتهم في علم الفلك منهم أبو الريحان البيروني خاصة في كتابه « كتاب جلاء الأذهان في زيج البتاني » ومنهم أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي الأندلسي (ت ٣٩٧ هـ) وأبو الحسن علي بن عمر المراكشي من علماء المغرب في كتابه « المبادىء والغايات في علم الميقات » .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي ترجم الزيج الصابيء الى اللاتينية ، وقد طبعت إحدى هذه الترجمات (ترجمة بلاتو تيفوك) في نورمبرج عام ١٥٣٧ م .

وقد نشر كالو نلينو طبعة للأصل العربي للزيج منقولا عن النسخة المحفوظة بمكتبة بلدية الإسكوريال في ثلاث مجلدات بروما ١٨٩٩ - ١٩٠٧ مصحوبة بترجمة لاتينية وتعليق على بعض النصوص .

مصادر ومراجع :

- د . امام ابراهيم احمد : الزيج الصابيء للبتاني . دراسة بمجلة تراث الانسانية - المجلد الثالث ص ١٨٣
- البتاني : الزيج الصابيء
- ابن النديم : الفهرست
- قدرى طوقان : تراث العرب العلمي

نماذج من كتاب الزيج الصابئ للبتاني

(١)

« إن من أشرف العلوم منزلة ، وأسناها مرتبة ، وأحسنها حلية ، وأعلقها بالقلوب ، وألمعها بالنفوس وأشدها تحديداً للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل بعد العلم ، بما لا يسع الانسان جهله من شرائع الدين وسنته ، علم صناعة النجوم . لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانها ، ومواضع النيرين وكسوفهما ، ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها ، الى ما يدرك بذلك من أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته ، وجليل قدرته ولطيف صنعه » .

المقدمة

(٢)

« وضعت في ذلك كتاباً أوضحت فيه ما استعجم ، وفتحت ما استغلق ، وبينت ما أشكل من أصول هذا العلم ، وشذ من فروعه ، وسهلت به سبيل الهداية لمن يأتم به ويعمل عليه في صناعة النجوم ، وصححت فيه حركات الكواكب ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ما وجدها بالرصد وحساب الكسوفين وسائر ما يحتاج اليه من الأعمال ، وأضفت إلى ذلك غيره مما يحتاج اليه ، وجعلت استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذي يحسب فيه بمدينة الرقة ، وبها كان الرصد والامتحان على تحذيق ذلك كله إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق » .

المقدمة

(٣)

« أما ما كان الوقوف عليه بالقياسات والأرصاد والمحن والاعتبارات ، فقد يمكن أن يستدرك فيه الزيادة والنقصان . فيا كان منه من قبل الوقوف على حقيقة الشيء بعينها والتقصير عن ذلك ، فإنه إذا قسم على الزمان الطويل قل ذلك الذي يعرض فيه ، وإن كان محسوساً . وما قسم على زمان قصير كثر وإن كان قليلاً .

وأما ما وقع الخطأ فيه من قبل الآلة في قسمتها ونصبها وتقويمها ، فإنه إن امتحن بتلك الآلة بعينها وهي على الحالة الأولى كان الخطأ واحداً في الوقتين ، وإن كان الخطأ من قبل القسمة فقط قد يمكن أن يصح نصبها وتقويمها إن يغير ويبقى الخطأ بحاله من قبل القسمة . فإذا رصد بغيرها ظهر الاختلاف » .

تعليق

في هذا ، النص يناقش البتاني الخطأ الذي يقع فيه عالم الفلك ، فيراه خطأين ؛ خطأ شخصي ، وآخر يرجع إلى الآلة .

فالخطأ الشخصي وهو ما يقع من العالم سواء أكان بقصد أو كان عن قلة دراية ، فيمكن معالجته بعدم الاعتماد على نتائج عالم واحد. فإذا ما كان الرصد المطلوب يعتمد على رصدتي عالمين بينهما فترة من الزمن ، فمن المستحسن أن تكون تلك الفترة أطول ما يمكن حتى إذا ما أخطأ أحدهما كانت قسمة الخطأ على عدد السنين أقل ما يمكن .

أما الخطأ الذي يرجع إلى الآلة كأن يكون بها خلل أو عيوب في طريقة تقسيم مقياسها ، فرأى البتاني أن هذا يمكن تداركه بعدم الاكتفاء بآلة واحدة في الرصد . كما يجب دائماً العمل على تطوير الآلة وزيادة دقتها .

معجم الشعراء للمرزباني
(٢٩٧ - ٣٧٨ هـ)

المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني ، وهو خراساني الأصل بغدادي المولد .

ولد المرزباني ببغداد في سنة ٢٩٧ هـ ، وفيها أخذ العلم عن كبار علماء عصره ومنهم : أبو بكر بن دريد وابن نفطويه وأبو بكر الانباري وغيرهم ، وهكذا نشأ المرزباني واسع المعرفة عالماً مدققا بالروايات والأخبار ، فيصفه ابن النديم في الفهرست ، وكان معاصراً له ـ بقوله إنه « كان صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع » .

كما أثبت له ابن النديم عدداً من المؤلفات أغلبها حول الشعر والشعراء مما يدل على أن تركيز اهتمام الرجل كان منصرفاً الى هذه الناحية . ومن هذه المؤلفات التي ذكرها ابن النديم نذكر :

١ ـ اخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين وأنسابهم وأزمانهم وأولهم بشار وآخرهم ابن المعتز .

٢ ـ اخبار ابن تمام

٣ ـ الرياض في أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين .

٤ ـ كتاب الشعراء . ويصفه ابن النديم بأنه « كتاب جامع لفضائله ، وذكر

محاسنه وأوزانه وعيوبه وأجناسه وضروبه ومختاره ، وادب قائليه ومنشديه ، وبيان فحوله ومسروقه .

٥ ـ كتاب المراثي .

٦ ـ الموثق في أخبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين على طبقاتهم .

٧ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء .

٨ ـ معجم الشعراء .

ولم يصلنا من هذه المؤلفات غير المؤلفين الأخيرين فقط .

ولا شك أن هذا الاهتمام بالشعر والشعراء وأخبارهم على النحو الذي رأيناه متمثلاً في عناوين كتبه ، لا شك أن هذا الاهتمام كان الدافع الحقيقي الذي دفع المرزباني الى وضع معجمه عن الشعراء، خاصة بعد أن رأى مؤلف الآمدي المعاصر له « المؤتلف والمختلف » الذي أرخ فيه للشعراء المتشابهة اسماؤهم وهم مختلفون .

وحينما تحدث ابن النديم عن معجم المرزباني قال « وكتاب المعجم له، ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم . بدأ بمن أول اسمه ألف الى حرف الياء . وفيه خمسة آلاف اسم . وفيه من شعر كل واحد منهم أبيات فيه يسيرة من مشهور شعره . فيه ألف ورقة » .

غير ان الكتاب على هذه الصورة التي وصفها ابن النديم ليس هو الذي بأيدينا ، فقد فُقد جزء كبير منه ، ولم تصلنا إلا نسخة بدون مقدمة تبدأ بحرف العين ، فضلاً عن أن أبواب حروف الغين واللام والنون والواو مفقودة هي الأخرى .

فالنسخة التي بأيدينا من معجم الشعراء للمرزباني نسخة منقوصة إذن .

والمرزباني في ترتيبه للشعراء لا يكتفي بالترتيب الابجدي . ذلك انه يلتزم إلى جانبه ترتيباً آخر يراعي فيه الزمن .

فهو يذكر في كل حرف،الاسماء المتشابهة في العصر الجاهلي أولا يليهم من عاشوا في العصر الاسلامي فالأموي ثم العباسي وهكذا .

وفي ترجمة المرزباني للشاعر يذكر اسمه ونسبه كاملاً وكنيته ، ثم أهم صفاته مستشهداً بشعر له ولغيره لتأكيد هذه الصفة ، ويأتي بعد هذا ببعض المواقف الهامة في حياة الشاعر ويختم الترجمة ببعض أشعار الشاعر خاصة في هذه المواقف ، وبنماذج من أجود ما انشد من شعر .

والملاحظ على كتاب معجم الشعراء للمرزباني أن المؤلف كان حريصا على تحديد عصر الشاعر أكثر من حرصه على اثبات تاريخ ميلاده ووفاته . وبذلك أغفل التواريخ لاغلب الشعراء الذين ترجم لهم ، وكان يكتفي في الاغلب بربطه بشخصية تاريخية بارزة عاشت في عصره أو بمناسبة أو حادثة تاريخية شهيرة .

كذلك نلاحظ على الكتاب أن المؤلف في ترجمته للشعراء كان يرتبهم وفقا لاسمائهم الحقيقية غير المشهورة غافلاً اسماءهم المشهورة المعروفة الامر الذي يجعل الكشف في معجمه لا يخلو من صعوبة للباحث،خاصة وإنه لم يراع الدقة في الترتيب الابجدي بعد الحرف الأول ، مكتفيا بالترتيب وفق الحرف الأول ، وتجميع الاسماء المتشابهة إلى بعضها .

وإذا كان كتاب معجم الشعراء للمرزباني يكشف لنا عن مدى معرفة المؤلف الواسعة بالشعر العربي خلال عصره ، فإنه يكشف لنا كذلك عن

حرص المؤلف على تحري الدقة في رواية الشعر ، وعلى التمييز بين الشعر وصحة نسبته إلى صاحبه .

ولهذا استطاع المرزباني أن يؤثر في العديد من المؤلفات الفهرسية التي ظهرت بعده وإن طورت منهجه الا انها بلا شك مدينة له في دقته العلمية ، وفي الاخذ عنه من علمه ومعرفته الكثير . ونذكر من هذه المصنفات معجم الادباء لياقوت الحموي وعيون التواريخ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ووفيات الاعيان لابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر .

هذا فضلاً عمن أخذ عنه العلم والرواية من أمثال القاضي أبو محمد الصيمري وأبو القاسم التنوخي ومحمد بن المظفر الدقاق وغيرهم .

وترجع اهمية الكتاب بالنسبة للباحث الحديث فيما يمكن أن يعثر عليه في الكتاب من تراجم لشعراء مغمورين لا نكاد نعرف عنهم الا ما ذكره المرزباني .

هذا وقد طبع الكتاب لأول مرة عام ١٩٣٥ بتحقيق المستشرف كرنكو مع كتاب الآمدي « المؤتلف والمختلف » في مجلد واحد . ثم طبع طبعة منفصلة بتحقيق عبد الستار أحمد فراج نشرة مكتبة الحلبي عام ١٩٦١ .

مصادر ومراجع

١ ـ ابن النديم : الفهرست
٢ ـ د . عمر الدقاق : مصادر التراث العربي
٣ ـ المرزباني : معجم الشعراء
٤ ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء .

نماذج من كتاب معجم الشعراء للمرزباني

(١)

باب ذكر من اسمه القحيف

(القحيف) العنبري . ذكره أبو عبيدة وهو بصري . يقول في قتل مسعود ابن عمرو الازدي وهرب عبيد الله بن زياد عن البصرة :

فدى لقوم قتلوا مسعودا   واستلبوا بلمعةُ الجديدا
واستلاموا ولبسوا الحديدا

وله : جاءت عمان دغرى لاصفا   بكر وجمع الاسد حين التفا

(القحيف) العقيلي ، وهو ابن حمير بن سليم الندي بن عبد الله بن عوف بن حزن بن خفاجة واسمه معاوية بن عمرو بن عقيل . وهو شاعر مقلق كوفي لحق الدولة العباسية . وله قصيدة قالها في الفتنة عند قتل الوليد بن يزيد أولها :

أان أهل الحجاز هوى نزيع   الا سقيا له لو يستطيعُ
كأن البين يوم حسرت منه   دم الحيات أو صبر فظيعُ

وله يرثي يزيد بن الطثرية :

الا تبكي سراة بني قشير   على صنديدها وعلى فتاها
أبا المكشوح بعدك من يحامي   ومن يزجي المطى على وجاها

وله من قصيدة ذكر فيها يوم الفلج :

ولولا الريح أسمع أهل حجر   صياح البيض يقرعها النصال

وأغار فيه على قول مهلهل بن ربيعة

ولولا الريح اسمع من بحجر　　صليل البيض تقرع بالذكور

[ص ٣٣١ - مكتبة القدس - ١٣٥٤ هـ - القاهرة]

(٢)
باب ذكر من اسمه قتيبة

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أسيد بن كعب ابن قضاعي بن هلال بن عمرو بن سلمان بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن باهلة بن أعصر بن سعيد بن قيس بن عيلان بن مضر .

تقلد خراسان من قبل الحجاج في أيام الوليد بن عبد الملك ، فلما مات الحجاج وتقلد سليمان بن عبد الملك الخلافة قلد يزيد بن المهلب خراسان فخلع قتيبة وكتب إلى سليمان :

رمانا سليمان بأمر أظنه　　سيحمله مني على شر مركب
رمانا بجبار العراق ومن له　　على كل حمى حد ناب ومخلب
فأصبحت للعبد المزوني ضالعاً　　وكان أتى قدماً على دين مصعب

وكان قتيبة ذا شرف في قومه وتقدم في بلده وكان أديباً عالماً . وأهل البصرة يفخرون به وولده وهو القائل من أبيات :

أبي لي آباء كرام وأول　　أقاموا على ماء الندى فتخوضوا
بكل فتى في محضة الحي واضح　　يلوح كما لاح اليماني المفضض

(قتيبة) الحماني : لقيه الأصمعي وأخذ عنه

[٣٣٢ ص]

الفهرست لابن النديم
(٣٢٠ـ ٤٠٠ هـ)

هو أبو الفرج محمد بن اسحاق بن النديم مع اختلاف بين من ترجم له الذين لم يذكروا عنه الشيء الكثير خاصة فيما يتصل بميلاده ووفاته وثقافته وشيوخه .

وقد حاول الباحثون المحدثون عن طريق الدراسات والمقارنات أن يقدموا بعض التواريخ التقريبية ، وأرجح هذه الآراء أنه من مواليد أواخر العقد الثاني من القرن الرابع وأن وفاته كانت في نهاية هذا القرن أو ما يقرب من ذلك .

ولا نعرف عن شيوخ ابن النديم ممن سمع منهم ونقل عنهم غير ما يذكره هو في كتابه ، فهو يذكر أنه سمع من أبي الخير الحسن بن سوار بن الخمار ومن أبي الفرج الأصفهاني وأبي سعيد وأبي الحسن محمد بن يوسف الناقط ، وأبي اسحاق السيرافي واسماعيل الصفار ويونس القس .

كما يحتمل أن الوراقة كانت صناعته ورثها عن أبيه ، وأغلب من ترجم له اثبت له هذه الصفة .

هذا وقد اتهم ابن النديم بالتشيع ثم بالاعتزال ثم بالرافضية ، وربما كان هذا هو السبب فيما رأيناه من اهمال المترجين له وتحاملهم عليه فلا نكاد نعثر عند من ترجم له على عبارة انصاف باستثناء قول ياقوت في معجمه عن كتاب الفهرست « الذي جدد فيه واستوعب استيعاباً يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه لجميع الكتب » .

ويبدو أن ابن النديم لم يؤلف كتبا أخرى غير الفهرست باستثناء كتاب آخر ذكره ياقوت والصفدي هو « التشبيهات » .

قصد ابن النديم لكتابه هذا « هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وكلها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأسمائهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا ، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة ، والكتاب بهذا يعد الأول من نوعه ومن هنا نستطيع ان ندرك إلى أي حد كلف الكتاب الرجل ، من الجمع والنظر والتقليب والاحاطة . فلا شك ان المهمة التي كلف بها ابن النديم نفسه كانت مهمة شاقة ، فقد كان الرجل يتصدى لوضع فهرس يضم العلوم المختلفة وعلماء كل علم ومؤلفات كل عالم ، مع التعريف بهذه المؤلفات . حقيقة سبق الفارابي والخوارزمي ابن النديم ، الا ان مؤلفيهما اقتصرا على الاحصاء دون الاهتمام بالتعريفات ، كما انها اقتصرا على المؤلفات فقط . والكتابان هما « احصاء العلوم » للفارابي محمد بن طرخان (ت ٣٣٩ هـ) و« مفاتيح العلوم » للخوارزمي محمد بن أحمد (ت ٣٨٧ هـ) وربما استفاد ابن النديم من المؤلفين في الاتجاه الى هذه التأليفات التي تهتم بالفهرسة والفهارس .

وبعد أن أوضح ابن النديم في مقدمة كتابه الغرض من تأليفه لهذا الكتاب ومجال اهتمامه ومنهجه في المعالجة ، قسم كتابه الى عشر مقالات ، وقسم كل مقالة إلى فنون اختلفت في العدد بين كل مقالة

قسم ابن النديم المقالة الاولى ثلاثة فنون تناول في الفن الأول وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها وتناول في الفن الثاني اسماء كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذهب أهلها ثم جعل الفن الثالث في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأسماء الكتب المصنفة في علومه وأخبار القراء وأسماء رواتهم

أما المقالة الثانية وهي الخاصة بالنحويين واللغويين فتحدث فيها من خلال تقسيمها إلى ثلاثة فنون كذلك ، درس في الفن الاول ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين واسماء كتبهم ، وفي الفن الثاني أخبار النحويين الكوفيين وأسماء كتبهم وفي الفن الثالث النحويين الذين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم .

وتناولت المقالة الثالثة الاخبار والآداب والسير والانساب وذلك من خلال ثلاثة فنون أيضا ، تناول في الفن الأول اخبار الإخباريين والرواة والنسابين وأصحاب السير والاحداث وأسماء كتبهم ، وفي الفن الثاني أخبار الملوك والكتاب والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين واسماء كتبهم، وفي الفن الثالث تناول ابن النديم أخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين وأسماء كتبهم .

أما المقالة الرابعة في كتاب الفهرست فقد جعلها ابن النديم في الشعر والشعراء ، وقسمها الى فنين ، الفن الأول : في طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ممن لحق الجاهلية وصناع دواونهم وأسماء رواتهم ، والفن الثاني في طبقات الشعراء الاسلاميين وشعراء المحدثين الى عصره .

وتأتي المقالة الخامسة في الكلام والمتكلمين على خمسة فنون تناول فيها ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة وأسماء كتبهم وأخبار متكلمي الشيعة والامامية والزيدية وغيرهم من الغلاة والاسماعيلية وأسماء كتبهم ، وأخبار متكلمي المجبرة والحشوية وأسماء كتبهم ، وأخبار متكلمي الخوارج وأصنافهم وأسماء كتبهم وأخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة والمتكلمين على الوساوس والخطرات واسماء كتبهم .

وجعل ابن النديم المقالة السادسة في الفقه والفقهاء والمحدثين وذلك من خلال ثمانية فنون، تناول في الفن الاول أخبار مالك وأصحابه وأسماء كتبهم ، وفي الفن الثاني أخبار أبي حنيفة النعمان وأصحابه وأسماء كتبهم ،

وفي الفن الثالث اخبار الشافعي وأصحابه وأسماء كتبهم وفي الفن الرابع أخبار داود وأصحابه وأسماء كتبهم وفي الفن الخامس أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم وفي الفن السادس أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدثين وأسماء كتبهم وفي السابع أخبار أبي جعفر الطبري وأصحابه وأسماء كتبهم وفي الثامن أخبار فقهاء الشراة وأسماء كتبهم .

وتناول في المقالة السابعة الفلسفة والعلوم القديمة في ثلاثة فنون تحدث فيها عن أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم وأخبار أصحاب التعاليم والمهندسين والارثماطيقيين والموسيقيين والحساب والمنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات وأسماء كتبهم وعن ابتداء الطب وأخبار المتطببين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها .

أما المقالة الثامنة وهي في الأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة فقد جعلها على ثلاثة فنون ، تحدث في الفن الأول عن أخبار المسامرين والمخرفين والمصورين وأسماء الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ، وفي الفن الثاني تناول أخبار المعزمين والمشعوذين والسحرة وأسماء كتبهم وتحدث في الفن الثالث عن كتب مصنفة في معان شتى لا يعرف مصنفوها .

ثم جعل المقالة التاسعة في المذاهب والاعتقادات في فنين ، الفن الاول في وصف مذهب النجرانية الكلدانية (الصابئة) وأسماء كتبهم والفن الثاني في المذاهب الفريدة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم .

أما المقالة العاشرة فخصها بأخبار الكيمائيين والفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم .

ولا شك أن تصنيف على هذا النحو ، لا بد وأن يكمن وراءه سعة

اطلاع وجهد دائب وثقافة واسعة وفوق هذا كله قدرة على الاستقصاء والجمع والتبويب والتصنيف .

ولأهمية الكتاب على هذا النحو كان مصدراً لكتب التراجم والسير التي جاءت بعده ، بل اعتمدت عليها مؤلفات كثيرة أخرى في موضوعات المعرفة المختلفة .

ولم يقف أهمية الكتاب عند القدماء فحسب ، فلا يزال الباحثون الى الآن يعتمدون عليه اعتماداً كبيراً كمصدر للتراجم .

وقد طبع الكتاب أكثر من طبعة. طبعه أول مرة جماعة من المستشرقين هم ، فلوجل وميلر وروديجز في ليبسك عام ١٨٧٢ م . ثم طبع في مصر طبعة ثانية .

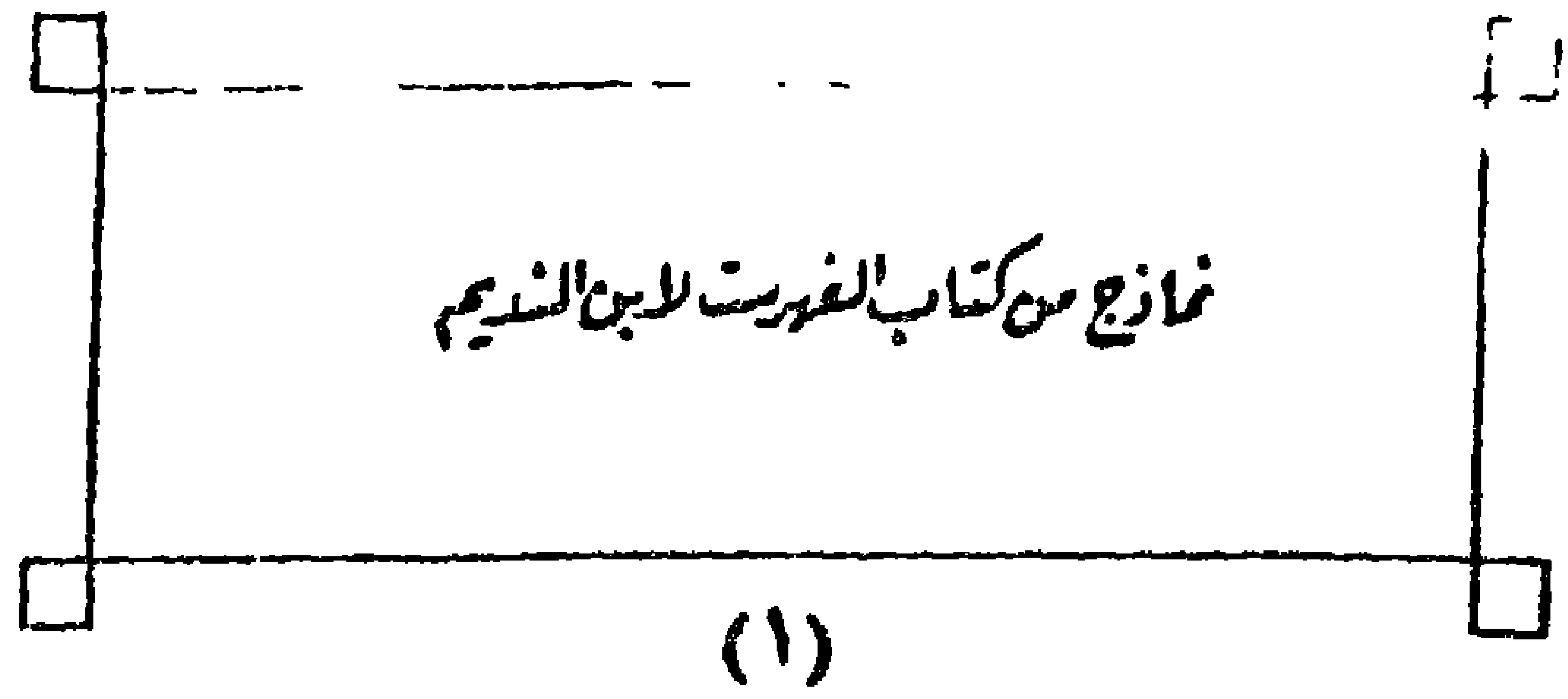
مصادر ومراجع

ابن حجر : لسان الميزان ، ص ٥

ابن النديم : الفهرست ـ ط . المطبعة التجارية ـ القاهرة

الصفدي ، خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات ، جـ ٢

ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، حـ ١٨



(١)

الكتب المؤلفة في غريب القرآن

كتاب غريب القرآن لأبي عبيدة ـ كتاب غريب القرآن لمؤرج السدوسي ـ كتاب غريب القرآن لابن قتيبة ـ كتاب غريب القرآن لابي عبد الرحمن اليزيدي ـ كتاب غريب القرآن لمحمد بن سلام الجمحي ـ كتاب غريب القرآن لأبي جعفر رستم الطبري ـ كتاب غريب القرآن لأبي عبيد القاسم ـ كتاب غريب القرآن لمحمد ابن عزيز السجستاني ـ كتاب غريب المصاحف لأبي بكر بن الوراق ـ كتاب غريب القرآن لأبي الحسن العروضي ـ كتاب غريب القرآن لمحمد بن دينار ا الأحول ـ كتاب غريب القرآن لأبي زيد البلخي ـ كتاب إعراب ثلاثية سورة من القرآن لابن خالويه ـ كتاب المصاحف لأبي بكر الوراق » .

[ص ٥٨ ـ ٥٩ ، ط . المكتبة التجارية ـ القاهرة]

(٢)

تسمية من أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي

أخذ عن أبي الاسود جماعة منهم يحيى بن يعمر وعنبسة بن معدان وهو عنبسة الفيل ، وميمون بن الاقرن ، وقال بعض العلماء إن نصر بن عاصم اخذ عن أبي الأسود . فأما يحيى بن يعمر فهو رجل من عدوان بن قيس بن غيلان ابن مضر، وكان عدده في بني ليث بن كنانة ، وكان مأمونا عالماً قد روى عنه الحديث ، ولقي ابن عباس وابن عمر وغيرهما وروى عنه قتادة وغيره .

وأما عنبسة بن معدان الفهري فرجل من أهل ميسان قدم البصرة وأقام بها وإنما سمي بالفيل لأن معدان اباه مقبل بنفقة فيل زياد مسمى به .

وكان بعد عنبسة عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي مولى لحضرموت وهجاه الفرزدق فقال :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وممن برع في أيامه عيسى بن عمر الثقفي . حدثني أبو سعيد رحمه الله ، قال حدثنا أبو مزاحم قال حدثنا بن أبي سعد قال ، حدثنا أبو عثمان المازني ، قال حدثنا الأصمعي عن عيسى بن عمر ، قال كنا نمشي مع الحسن ونسأ عبد الله بن أبي أسحق ، قال فقال الحسن جاذبوا هذه النفوس فإنها طلعة . فأخرج عبد الله بن أبي اسحق ألواحه فكتبها وقال استفدنا منك يا أبا سعيد طلعة وأبو عمر ابن العلاء » .

[ص ٦٨]

(٣)

الآمدي

واسمه الحسن بن بشر بن يحيى ويكنى أبا القاسم من أهل البصرة قريب العهد وأحسبه حيا . مليح التصنيف جيد التاليف متعاطي مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب .

وله من الكتب :

كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء - كتاب معاني شعر البحتري - كتاب نثر المنظوم - كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري - كتاب الرد على علي بن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام - كتاب في أن الشاعرين لا يتفق خواطرهما - كتاب في اصلاح ما في معيار الشعر لابن طباطبا - كتاب في نثر ما بين الخاص والمنزل من معاني الشعر - كتاب في تفضيل شعر امرىء القيس على الجاهليين - كتاب في شدة حاجة الانسان الى ان يعرف قدر نفسه .

تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه

(٣٣٠ - ٤٢١ هـ)

مسكويه هو أحمد بن محمد بن يعقوب ، ولد بالري في أيام دولة بني بويه عام ٣٢٠ هـ ولقب بالخازن لعمله خازنا لمكتبة ابن العميد وزير ركن الدولة صاحب بلاد الري والجبل .

تفوق ابن العميد في علوم الهندسة والمنطق والفلسفة والالهيات والطبيعة والأدب حتى قربه بهاء الدولة بن بويه واتخذه ناصحا له حوالي سنة ٣٨٠ هجرية .

ولمسكويه العديد من المؤلفات ، منها ما طبع ومنها ما زال مخطوطاً ، ومنها ما ذكرته كتب التراجم ولم يصلنا .

ومن كتبه التي طبعت كتاب تهذيب الأخلاق ، وكتاب السعادة ، وكتاب الفوز الصغير ، وكتاب تجارب الأمم ، وكتاب جاويدان خرد او الحكمة الخالدة .

ومن كتبه المخطوطة رسائله في اللذات والألم وفي الطبيعة وفي جوهر النفس ، ومقال في النفس والعقل ، والتميز بين الدهر والزمان وطهارة النفس ، وغيرها .

أما كتاب تهذيب الاخلاق فقد طبع عدة طبعات في مصر أولها طبعة ١٢٩٦ هجرية ، ثم أعيد طبعه في سنوات ١٣١٧ - ١٣٢٣ و١٣٢٦ هجرية . وطبع ببيروت سنة ١٩٦١ . والكتاب دراسة علمية بقدر ما وصل اليه العلم آنذاك في تقويم الأخلاق والسلوك أو كما يقول مسكويه في مقدمته لكتابه « غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا ، تصدر به عنا الافعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي » .

فالدراسة هنا دراسة تتناول بعض أنماط العلاقات الاجتماعية ، وخاصة الأمراض الاخلاقية التي انتشرت في عصره ، والتي أوجدتها طبيعة الحياة آنذاك وظروفها ، فتعرض للغرور والخيلاء والكراهية والغيرة والحقد ، كما يتناول قواعد علاقات الأفراد بعضهم ببعض فيما يسمى الآن بقواعد اللياقة .

ولا شك أن مسكويه قد تأثر في كتابه هذا بكثير من المترجمات لكتب الاخلاق وطبيعة الانسان ، وخاصة تلك التي ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية . فقد كان أمامه قبل تأليفه كتابه ، كتاب الأخلاق لجالينوس وكتاب ابقراط في طبيعة الانسان ، إلى جانب كتب الاخلاق والحكمة التي ترجمت عن الفارسية ، والتي كتبت قبل مسكويه .

وقد قسم مسكويه كتابه إلى سبعة أبواب أو سبع مقالات تناول فيها النفس ومراتب القوى وشرفها والفرق بين الخير والسعادة وأقسام الخير وظهور السعادة في الأفعال الناشئة عن الفضائل والاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض وعلاج أمراض النفس ثم رد الصحة على النفس ومعالجة أمراضها .

وقد رأى مسكويه أن النفس ليست حالة من أحوال الجسم ، وإنما شيء آخر يختلف عن الجسم في جوهره ، وهي لهذا لا تأخذ علمها من الحواس ولكن تأخذه من ذاتها أي من العقل .

ثم قسم النفس إلى ثلاثة أقسام ، القوة الناطقة وتسمى الملكية وآلتها الدماغ ، وتقابلها الحكمة ، والقوة الغضبية وتسمى السبعية وآلتها القلب وفضيلتها الشجاعة ثم القوة الشهوية وهي التي تسمى بالبهيمية وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد وفضيلتها السخاء .

ورأى مسكويه أن هذه الفضائل اذا اعتدلت في نسبة بعضها إلى بعض نتجت عنها فضيلة رابعة وهي فضيلة العدل .

أما أضداد هذه الحكم فهي الجهل والجبن والشدة والجور .

والفضائل عند مسكويه أوساط بين اطراف متباعدة وهي الرذائل ، فكل فضيلة وسط بين رذيلتين فالحكمة مثلاً وسط بين السفه والبله ، والذكاء وسط بين الخبث والبلادة وهكذا .

ثم رأى مسكويه أن الفضائل يختص بها الانسان دون الحيوان ، وهو لا يستطيع تحقيق هذه الفضائل وحده فهو لكي يكمل ذاته في حاجة الى معاونة غيره ، فالانسان بالناس وهم به ، وهم جميعاً يحققون تحصيل الفضائل الانسانية ، ولهذا ينفي مسكويه أن تكون هناك فضائل في الزهد وترك مخالطة الناس فمثل هؤلاء الناس لديه « لا يحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية » بل تصبح قواهم وملكاتهم باطلة .

وبهذا استطاع مسكويه أن يكتشف أن الفضائل ليست سوى فعل ايجابي يظهر من خلال المشاركة الاجتماعية والايجابية في الحياة .

فالذي يؤدي إلى الفضائل هو الخلق الانساني الذي لا يتوافر الا بالمشاركة والاجتماع .

وحينا تصدى مسكويه لدراسة الخلق ، رأى أنه حال للنفس يستدعيها السلوك الانساني من غير فكر ولا روية ، وتنقسم هذه الحال قسمين ، فمنها « ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ، ويهيج من أقل سبب . . . ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب» . وفي هذا الصدد يعرض مسكويه لأراء الرواقيين وجالينوس وأرسطو وغيرهم والعلماء .

ولكنه لا يلبث أن يقرر أن الخلق غير طبيعي ، فيمكن تغييره بالمواعظ والتدريب ، فالاطفال ينشأون بحسب الأسلوب الذي ربوا عليه في المجتمع ، وان لم يغفل تفاوت الافراد في قبول الاخلاق الفاضلة فمنهم « المتواني والممتنع والسهل السلس والفظ العسر ، والخير والشرير » . . .

الخ » . ولكن هذا لا يمنع من أن نقوم « بتجويد أفعال الانسان بما هو إنسان » وهذه هي صناعة الاخلاق

ولصناعة الأخلاق عند مسكويه مبادىء وأسس: منها أن الغرض من علم الاخلاق الوصول بالانسان الى الكمال ، وكمال الانسان تفكير وعمل ، فيشتمل إذن على جانب نظري وجانب تطبيقي عملي وهذا الجانب الأخير هو مهمة علم الأخلاق بحيث ينتهي عام الأخلاق الى « التدبير المدني الذي يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى يسعدوا سعادة مشتركة » .

ومن مبادىء صناعة الأخلاق كذلك البحث عن اللذات العقلية التي يتميز بها الانسان عن غيره من الكائنات ، ومنها كذلك ضرورة العمل على تنشئة الطفل وفق برنامج معد ومتناسب مع توالي ظهور قوى النفس في الطفل .

ثم يعرض مسكويه بعد ذلك للسعادة والخير ، فيرى أن الخير طبيعة تقصد لذاتها »أما السعادة فخير خاص بفرد ما وهذه لا تتم الا بتحصيل السعادة الروحية والسعادة البدنية معاً .

وتحدث السعادة عند مسكويه لمن يقوم بممارسة الفضائل من العدالة والشجاعة والعفة ،شرط أن تكون هذه الفضائل مستهدفة بنية خالصة .

ويرى مسكويه أن الاجتماع ضروري بين الناس لأنهم يكملون بعضهم بعضا ، ولذلك قامت المحبة بينهم ،التي هي أساس الحياة الاجتماعية .

ويختم مسكويه كتابه بمقالتين في تشخيص بعض الامراض النفسية والاجتماعية وطرق الوقاية والعلاج منها . فالمقالتان من ثم نوع من التربية النفسية يوجه فيها مسكويه النظر إلى ضرورة المحافظة على الصحة النفسية ووسائل هذا . فيرى أنه « مما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أنه يلتزم

وظيفة من الجزء النظري والعملي لا يجوز له الاخلال به البتة ، لتجري النفس مجرى الرياضة التي تلزم في حفظ صحة البدن ، وأطباء النفوس أشد تعظيماً لها في حفظ صحة النفس . وذلك أن النفس متى تعطلت عن النظر وعدمت الفكر والغوص على المعاني تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا الفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة ، قرب هلاكها لأن في عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الأصلية ورجوعاً منها الى رتبة البهائم » .

ويرى مسكويه أن على الانسان أن يجاهد نفسه الشهوية والغضبية دوماً ، وهذا هو الجانب الوقائي .

أما الرذائل التي تنتج عن عدم المجاهدة وهي التهور والجبن ، والشره والخمول ، والسفه والبله ، والجور والمهانة ، فعلى الانسان أن يجاهد نفسه حتى يستطيع أن يحقق الشفاء من هذه الأمراض .

وبهذا يعد كتاب تهذيب الاخلاق لمسكويه وسطا بين الابحاث الفلسفية وبين دراسة ظواهر السلوك في المجتمعات وفي الافراد دراسة نفسية ، وبين دراسة العلاقات الاجتماعية .

مصادر ومراجع :

الثعالبي : تتمة اليتيمة ، الجزء الاول

د . حسن سعفان : تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لمسكويه
مقال بمجلة تراث الانسانية ـ المجلد الثالث ، ص : ٥٤

ـ مسكويه : تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق .

ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ـ الجزء الخامس .

نماذج من كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه

(١)

« قال أحمد بن محمد بن مسكويه : غرضنا من هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة ، وعلى ترتيب تعليمي .

والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي وأي شيء هي ، ولأي شيء أوجدت فينا . أعني كمالها وغايتها وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية ، وما الأشياء العائقة لنا عنها ، وما الذي يزكيها فتفلح وما الذي يدسيها فتخيب . فإن الله عز من قائل يقول : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ .

ولما كان لكل صناعة مبادىء عليها تبتني وبها تحصل ، وكانت تلك المبادىء مأخوذة من صناعة أخرى . وليس في شيء من هذه الصناعات أن تبين مبادىء أنفسنا كان لنا عذر واضح في ذكر مبادىء هذه الصناعة على طريق الاجمال والاشارة بالقول الوجيز » .

[ص ٢ - ٣ ، ط . مطبعة الترقي - القاهرة ١٣١٧ هـ]

(٢)

الأجناس الاربعة التي تحتوي على جمل الفضائل :

« أما الحكمة فهي فضيلة النفس الناطقة المميزة وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة ، وإن شئت فقل أن تعلم الأمور الالهية والامور الانسانية ، ويثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل » .

« وأما العفة فهي فضيلة الحس الشهواني وظهور هذه الفضيلة في الانسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأي . أعني أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها ، ويصير بذلك حراً غير متعبد لشيء من شهواته .

وأما الشجاعة فهي فضيلة النفس الغضبية وتظهر في الانسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمال ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة أعني أن لا يخاف من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلاً والصبر عليها محموداً .

فأما العدالة فهي فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التي عددناها وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها للبعض واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها . ويحدث للانسان بها سمة يختار بها أبداً الانصاف من نفسه أولاً ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله » .

[ص ١٥]

(٣)

دواء النفوس

« ولما كانت النفس قوة الهية غير جسمانية ، وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ومربوطة به رباطاً طبيعياً الهيا ، لا يفارق أحدهما صاحبه الا بمشيئة الخالق عز وجل ، وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره فيصح بصحته ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعالها .

وذلك أنا كما نرى المريض من جهة بدنه لا سيما إن كان سبب مرضه أحد الجزئين الشريفين أعني الدماغ والقلب ، يتغير عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك .

كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه إما بالغضب وإما بالحزن وإما بالعشق وإما بالشهوات الهائجة به تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن ويلحقها ضروب التغير المشاهدة بالحس . فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ الأمراض إذا كان من نفوسنا . فإن كان مبدؤها من ذاتها كالفكر في الأشياء الرديئة واجالة الرأي فيها ، وكاستشعار الخوف والخوف من الأمور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها . وإن كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذي مبدأه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق الذي مبدأه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضا علاجه بما يخص هذه » .

[ص ص ١٤٤ ـ ١٤٥]

(٤)

معرفة المرء عيوب نفسه

« ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوب نفسه باستقصاء شديد ولا يقنع بما قاله جالينوس في ذلك فإنه ذكر في كتابه المعروف بتعرّف المرء عيوب نفسه « إنه لما كان كل إنسان يحب نفسه خفيت عليه معايبه ولم يرها وإن كانت ظاهرة » . وأشار في كتابه هذا بأن يختار من يجب ان يبرأ من العيوب صديقاً كاملاً فاضلاً فيخبره بعد طول المؤانسة أنه إنما يعرف صدق مودته إذا أصدقه من عيوبه حتى يتجنبها ويأخذ عهده على ذلك ولا يرضى منه إذا قال له لا اعرف لك عيبا بل ينكر عليه ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة ، ويعاود مسئلته والالحاح عليه . فإذا لم يخبره بشيء من عيوبه زاد في العتب الصريح والالحاح قليلاً ، فإذا أخبره ببعض ما يعثر عليه منه فلا يظهر له في وجهه أو كلامه نكرة ولا انقباضا ، بل يبسط له وجهه ويظهر السرور بما أخرجه إليه ونبه عليه ، ويشكره على الأيام وفي أوقات المؤانسة ليتطرق له إلى اهداء مثله إليه ثم يعالج ذلك العيب بما يزيل أثره ويمحو ظله . ليعلم ذلك المهدى اليك عيبك أنك من وراء نفسك وفي طريق علاج مرضك فلا ينقض عن معاودتك ونصيحتك » .

[ص ١٥٥ - ١٥٦] .

فقه اللغة للثعالبي
(٣٥٠ - ٤٢٩ هـ)

الثعالبي هو عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، أبو منصور الثعالبي النيسابوري . ولقب بالثعالبي نسبة الى مهنته حيث كان في أول أمره فراءً يخيط جلود الثعالب في مدينته نيسابور .

ولد أبو منصور الثعالبي سنة خمسين وثلاث مئة بمدينة نيسابور ، وفي نيسابور ذاع صيته في علوم اللغة والأدب فكان صديقاً لكثير من أعلام الأدب في عصره ومنهم بديع الزمان الهمزاني والباخرزي ، كما اتصل بالأمير أبي الفضل الميكالي ، وأفاد من مكتبته ومحتوياتها ، واتصل كذلك بالأمير أبي نصر سهل بن المرزبان الذي كان عالماً فاضلاً وأديبا شاعراً .

وقد شهد له معاصروه ومن ترجم له بالعلم والتأدب ، فقال عنه الحصري في كتابه زهر الآداب « وهو فريد دهره ، وقريع عصره ، ونسيج وحده ، وله مصنفات في العلم والأدب تشهد له بأعلى الرتب .

وللثعالبي العديد من المؤلفات أغلبها في الأدب والأخبار عددها الصفدي في الوافي بالوفيات ونذكر من هذه الكتب مما نشر :

- كتاب أحسن ما سمعت ، ويسمى اللآلىء والدرر ، وطبع بمصر ١٣٢٤ هـ
- كتاب اعجاز القرآن . وطبع بمصر سنة ١٨٩٧ م
- كتاب بَرد الأكباد في الاعداد . وطبع بالاستانة سنة ١٣٢٥ هـ
- كتاب سحر البلاغة وسر البراعة
- كتاب سر الأدب في مجاري كلام العرب

- كتاب الطرائف واللطائف
- كتاب لطائف المعارف
- كتاب ما جرى بين المتنبي وسيف الدولة
- كتاب المبهج
- كتاب مرآة الروآت
- كتاب المتنحل .
- نثر النظم وحل العقد
- النهاية في الكتابة
- يتيمة الدهر .
- كتاب ثمار القلوب
- كتاب خاص الخاص .
- كتاب فقه اللغة

وكتاب فقه اللغة للثعالبي ، واسمه كاملاً « فقه اللغة وأسرار العربية ، فصول أراد بها الثعالبي أن يجمع الاستخدام الدقيق للألفاظ . فالكتاب عبارة عن معجم الألفاظ جمعها في ترتيب خاص وفقاً لاشتراكها في باب واحد على نحو ما قسم كتابه .

ويقسم الثعالبي كتابه قسمين : القسم الاول وأطلق عليه فقه اللغة ، والقسم الثاني وأطلق عليه أسرار العربية .

والواضح أن مفهوم فقه اللغة كدراسة تهتم بالفحص العلمي للغة أو حتى بمجرد الفحص ، ودرس قواعد الصرف والنحو والحياة العقلية للغة ، لم يكن هو ما استخدمه الثعالبي .

إن كان الصاحبي ، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥) وهو سابق على الثعالبي كان أكثر توفيقا في استخدامه لفقه اللغة بمفهوم أقرب الى التوفيق . وذلك في كتابه « فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، وربما كان مرجع هذا إلى أن الصاحبي كان أكثر ثقافة في علوم اللغة من الثعالبي الذي كانت تغلب عليه الثقافة الأدبية الجامعة على طريقة المنادمة .

ومنذ المقدمة نرى هدف الثعالبي من كتابه ، والسبب في اختياره لهذا الاسم .

فالكتاب مهدى إلى « الأمير السيد الأوحد ، أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي » . وقد ألفه تلبية لرغبة الأمير في مؤلف يجمع « نكت من أقاويل أئمة الأدب في أسرار اللغة وجوامعها ، ولطائفها وخصائصها » مستعينا بثقافته وبالمؤلفات السابقة .

ويذكر الثعالبي العديد من الأسماء ممن أخذ عنهم كالخليل والاصمعي وابي عمرو الشيباني والكسائي والفراء وأبي زيد وأبي عبيدة وغيرهم كثير .

وانتهى بكتابه وقد بلغ ثلاثين باباً قسمها لما يزيد عن ستّ مئة فصل ، هي محتويات الجزء الأول من كتابه المسمى بفقه اللغة .

وتناول الثعالبي في هذا القسم اختلاف اسماء الاشياء وأوصافها باختلاف احوالها والألفاظ المستخدمة في أوائل الأشياء وأواخرها ، وصفات الاشياء وكبارها وعظامها وضخامها ، وأحوالها من طول وقصر ويبس ولين ورطوبة وشدة وكثرة وقلة . وفي سائر الأوصاف والأحوال المتضادة وفي الملء والامتلاء والخلاء وفي ضروب الألوان والآثار وفي أسنان الناس والدواب وفي الأصول والأعضاء والرءوس والأطراف وأوصافها وفي الأمراض والأدواء وضروب الحيوانت وأوصافها ، وفي الأحوال والافعال الحيوانية ، والحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب والرمي وفي الأصوات وفي اللباس وما يتصل به والأطعمة والأشربة وما يناسبها

والأمطار والمياه وأماكنها وفي الأرض والرمال والجبال والاماكن والمواضع والحجارة وفي النبت والزرع والنخل وما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية وغيرها .

أما القسم الثاني وهو ما أسماه أسرار العربية في مجاري كلام العرب وسننها في كلامها فهو مجموعة فصول في خصائص اللغة العربية تناول فيها بعض الموضوعات النحوية والصرفية والبلاغة .

والواضح أن الثعالبي الأديب بما لديه من ثقافة أدبية وحس باللغة ، أراد بكتابه هذا أن يضع أمام الأمير الدلالات الدقيقة للألفاظ وطرائق العرب في التعبير. ويبدو أن الثعالبي كان متأثراً في تأليفه لكتابه ـ وإن لم يذكر ـ بكتاب ابن فارس الذي سبقت الاشارة اليه ، وقد لاحظ أكثر من باحث هذا ، فيذكر الدكتور محمد أبو الفرج في كتابه مقدمة لدراسة فقه اللغة الكثير من أوجه المشابهة والمماثلة بين فصول القسم الثاني من كتاب الثعالبي وفصول من كتاب ابن فارس

هذا وقد طبع الكتاب أكثر من مرة ، منها طبعة المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر ١٣١٧ هـ ، وطبعة مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) بتحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي .

مصادر ومراجع :

ـ ابن الانباري : نزهة الالبا في طبقات الأدبا

ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، حـ ٣

ـ الثعالبي : فقه اللغة ـ ط . مصطفى الحلبي ١٣٥٧

ـ دائرة المعارف الاسلامية : مادة الثعالبي .

ـ د . محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة

نماذج من كتاب فقه اللغة للثعالبي

في الأشياء التي تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها

(١)

فصل (فيما روى منها عن الأئمة وعن أبي عبيدة)

لا يُقال : كأس ، الا إذا كان فيها شَرَابٌ وإلاّ فهي زُجاجَة .

ولا يُقال : مائدَةٌ : إلاّ إذا كان عليه طَعامٌ ، وإلاّ فهي خُوَانٌ .

ولا يُقالُ : كوزٌ الا اذا كانت لهُ عُرْوةٌ ، وإلاّ فهو كُوبٌ .

ولا يُقال : قلم إلا إذا كان مَبرِيًا ، وإلاّ فهو أنْبُوبَةٌ

ولا يُقال : خَاتَم ، إلا إذا كان فيه فَصّ وإلا فهوَ فتْخة

ولا يُقال : فَرْوٌ إلاّ إذا كان عليه صُوفٌ وإلاّ فهو جلدٌ

ولا يُقال : رَيْطَة ، إلاّ إذا لم تكُنْ لِفقين ، إلا فهي مُلاَءَةٌ

ولا يُقال : أريكةٌ ، إلا إذا كان عليها حَجَلةٌ ، وإلا فهي سِريرٌ

ولا يُقال : لطيمةٌ ، إلاّ إذا كان فيها طِيبٌ والا فهي عيرٌ

ولا يُقال : رُمحٌ ، إلاّ إذا كان عليه سنانٌ وإلاّ فهو قَناةٌ

[ص . ٣ ـ ط . مصطفى الحلبي بتحقيق السقا والابياري وشلبي ـ ١٩٣٨]

(٥)

فصل مجمل في الحذف والاختصار

[من القسم الثاني : سر العربية]

من سنن العرب : أن تحذف الألف من (ما) إذا استفْهَمْتَ بها ، فتقول : بم ؟ ولم ؟ ومم ؟ وعلام ؟ وفيم ؟

قال تعالى : ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ؟ وكما قال عز وجل : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ عن النباء العظيم ﴾ أي عن ما ، فأدغم النون في الميم .

ومن الحذف للاختصار قول الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي السر وأخفى منه ، فحذف . وقوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أي أمرة واحدة أو مرة واحدة . . .

ومن ذلك حذف النداء ، كقولهم : زيد تعال ـ وعمرو اذهب . أي يا زيد ويا عمرو . وفي القرآن ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عن هذَا ﴾ أي يا يوسف .

ومن ذلك حذف أواخر الأسماء المفردة المعرفة في النداء دون غيره ، كقولهم : يا حار ، ويا مال ، ويا صاح أي يا حارث ، ويا مالك ويا صاحبي ، ويقال لهذا الحذف : الترخيم ، وفي بعض القرآت الشاذة :

(ونادَوْا يَا مالُ) وقال امروؤ القيس :

افاطِمَ مَهْلاً بَعْض هذَا التَّدَلُّلِ

[ص ٣٤٨]

الأحكام السلطانية للماوردي
(٣٦٤ - ٤٥٠ هـ

الماوردي هو أبو الحسن علي بن محمد ابن حبيب الماوردي البصري البغدادي عاش في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري .

نشأ الماوردي في البصرة ودرس على يد جماعة من مشايخ عصره ، منهم الحسن بن علي بن محمد ، ومحمد بن عدي المقري ، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي ، وكلهم من المحدثين الفقهاء . بعد ذلك رحل الماوردي الى بغداد والتقى هناك بالشيخ أبي حامد بن أبي طاهر الاسفرايني (ت ٤٠٦ هـ) وأخذ عنه الفقه .

اشتغل الماوردي بالقضاء ، ولقب بلقب « أقضى القضاة » سنة ٤٢٩ كما يذكر ياقوت الرومي في معجمه .

ويتفق كل من ترجم للماوردي مثل السبكي والخطيب البغدادي وياقوت الرومي في أن الماوردي في ممارسته للقضاء وفي احكامه كان يتصف بالمرونة والاجتهاد ، وانه لم يقف جامداً أمام نصوص القانون والشريعة .

وفي بغداد مرة ثانية تتلمذ على يديه وروى عنه كثيرون منهم أبو بكر الخطيب وأبو العز بن كادش .

عاصر الماوردي قمة ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية ، في بغداد عاصمة الفكر والفن والسياسة والاقتصاد ، وهناك تثقف بثقافات عصره. ومع أن الكتب التي ترجمت له لم تذكر الكثير عن حياته الأولى ، الا أن الدارس لمؤلفاته سيكتشف أن الرجل لم يكن فقيها فحسب كما تخبرنا كتب التراجم ، بل كان أيضا لغوياً ومفسراً وأديباً وفيلسوفاً ومنظراً اجتماعياً .

وربما بسبب غلبة الروح الفلسفية والنظرة الاجتهادية عليه ، ربما

بسبب ذلك اتهم الماوردي بالاعتزال منْ اغلب من ترجم له ، ولكن يبدو أن هذا الاتهام كان افتراءً على الرجل. فمع أن الماوردي عمل بالاجتهاد القائم على العقل في البحث في مسائل الدين ، الا ان فكره كما وضح في مؤلفاته لا يوافق المعتزلة في أهم أصولهم .

وللماوردي مؤلفات كثيرة ومتنوعة ، فيقول عنه الخطيب البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد » [ص ١٢] أن « له تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه وفي غير ذلك » وإن كنا لا نعرف من مؤلفاته الا حوالي اثني عشر مؤلفا أغلبها مخطوطات لم تنشر بعد .

وفي المقدمة التي كتبها مصطفى السقا عن الماوردي في تحقيقه لكتاب البغة العليا في أدب الدين والدنيا ، في هذه المقدمة ، قسم السقا مؤلفات الماوردي إلى مجموعات ثلاث :

أولاً : مجموعة الكتب الدينية وتشمل :

١ ـ كتاب تفسير القرآن ، ويعرف بكتاب النكت والعيون . ولا يزال الكتاب مخطوطاً

٢ ـ كتاب الحاوي الكبير ، وهو موسوعة كبيرة في فقه الشافعية في أكثر من عشرين مجلداً ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً كذلك .

٣ ـ كتاب الاقناع ، وهو مختصر لكتاب الحاوي الكبير

٤ ـ كتاب أدب القاضي ، مخطوط

٥ ـ كتاب أعلام النبوة ، مخطوط ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية

ثانياً : مجموعة الكتب اللغوية والأدبية : ومنها :

١ ـ كتاب الامثال والحكم . مخطوط .

٢ ـ كتاب البغة العليا في أدب الدين والدنيا ، وهو مجموعة آيات

القرآن والأحاديث التي تحث على الفضائل وتنهي عن الرذائل ، مزوداً بنماذج أدبية من التراث العربي ومن الحكم الأجنبية .

طبع عدة مرات ، أشهرها طبعة القاهرة ١٩٥٥ التي حققها وعلق عليها مصطفى السقا .

٣ - كتاب في النحو ، وهو كتاب مفقود، ذكر ياقوت الرومي في معجمه انه رآه بنفسه .

ثالثاً : مجموعة كتب السياسة والفكر ، وهي أربعة كتب ضمنها الماوردي آراءه في نظم الحكم والادارة والسياسة . وهي :

١ - كتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك . طبع بالقاهرة سنة ١٩٢٩ بعنوان « أدب الوزير » .

٢ - كتاب نصيحة الملوك . وهو مخطوط وتوجد نسخة منه بالمكتبة الأهلية بباريس .

٣ - كتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر . مخطوط وتوجد منه نسخة مخطوطة في غوطة .

٤ - كتاب الاحكام السلطانية . وهو أشهر مؤلفات الماوردي وأهمها وقد طبع بالقاهرة ١٢٩٨ هـ .

ويعتبر كتاب الاحكام السلطانية من أخطر المراجع التاريخية عن النظم الاسلامية ، والفكر السياسي . فالكتاب يبحث في الأسس التي تقوم عليها الدولة ، وعن تنظيم ادارتها وقواعد التشريع فيها وعلاقة الفرد فيها بالدولة ، وعلاقة الدول بعضها ببعض .

قسم الماوردي كتابه الى مقدمة وعشرين باباً متناول فيها جوانب الحكم وأركان نظام الدولة. بدأ المقدمة بتوضيح هدفه وهدف كتابه بقوله :

« ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق ، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها ، مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير ، أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء - فيما له منها - فيستوفيه ، وما عليه فيوفيه ، توخيا للعدل في تنفيذه وقضائه ، وتحرياً للنصفة في أخذه وعطائه » .

ثم تناول في الباب الأول عقد الإمامة فرأى انه « لولا الولاة لكانوا فوضى مهملين وهمجاً مضاعين» . والماوردي يرى ضرورة الحكومة وأهميتها في توحيد الأهواء والاختلافات ، ومن هنا كانت الحكومة مرتبطة أساساً عنده بالحاكم القوي .

والامامة عند الماوردي أساساً وظيفة وأمانة معقودة بالأمة ، فهي حق المسلمين جميعاً ، وهي كما يقول الماوردي « عقد مرضاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » . وفي هذا ما يدل دلالة قوية على المنطلق الفكري الذي اعتمده الماوردي في فلسفته لسياسة الحكم ، وهو منطلق يعتمد على الديمقراطية المطلقة وعلى فكرة التعاقد الاجتماعي التي ربما اطلع عليها في الفلسفة اليونانية ، والتي عرفت بعد ذلك في فلسفات القرن الثامن عشر الميلادي بالعقد الاجتماعي عند روسو وهوبز ولوك .

ثم يأخذ الماوردي بعد ذلك في تحديد واجبات الحاكم فيراها في تنفيذ الاحكام ، واقامة العدل وحماية الاموال والبلاد وجباية الأموال المستحقة على القادرين وتوزيع الصدقات على المحتاجين . وعلى الامام الحاكم أن يقوم بهذه الأعمال حتى يكون قد أدى حق الله فيها لهم . وفي مقابل هذا وجب على الأمة حقان : الطاعة والنصرة ، وعليها الالتزام بهذا الحق ما لم يتغير حاله .

ثم تناول الماوردي في هذا الباب كذلك مسألة ولاية العهد ، فأجازها بشروط وقياساً على عمل المسلمين بها عندما عهد أبو بكر بالامامة لعمر

وعدما عهد عمر بها الى أهل الشورى ، فأثبت المسلمون امامة أبي بكر ، وقبلت الجماعة دخولهم في الامامة بعد عمر. وهكذا اكد الماوردي أن شخص الحاكم ليس هو الاساس في الحكومة ، وإنما الاساس هو قيام السلطة وسيادة القانون .

وفي الباب الثاني تناول الماوردي تقليد الوزارة فرأى أنه لما كان من المتعذر على الامام النهوض بكل شيء في الأمة مباشرة بنفسه ، لذلك فلا بد له من أن ينيب عنه أعواناً يعهد إليهم بتأدية بعض هذه الاعمال ، فما « وكل إلى الامام من تدبير الأمة ، لا يقدر على مباشرة جميعه الا باستنابة » .

وقد استند الماوردي في قوله بجواز الوزارة على ما جاء في القرآن الكريم من أن موسى عليه السلام طلب وزيراً يسانده فأجابه الله إلى طلبه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كما يرى الماوردي فإن « نيابة الوزير المشارك له في التدبير ، أصبح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ، ليستظهر به على نفسه ، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل .

ويقسم الماوردي أنواع الوزارة الى وزارتين : الأولى وزارة تنفيذ يكلف فيها الوزير بتنفيذ الأمور الموكولة اليه . والثانية وزارة تفويض ويفوض فيها الوزير بتدبير الأمور برأيه واجتهاده . ولذلك وجب ان يتوافر في وزير التنفيذ الأمانة والصدق والحيدة والذكاء. وأجاز الماوردي فيه أن يكون ذمياً بخلاف وزير التفويض الذي يمارس سلطة العزل والولاية ومباشرة الحكم وتسيير الجيوش والتصرف في بيت المال. وهكذا استطاع الماوردي أن يثبت رحابة أفقه باجازته تولية الوزارة في الدولة الاسلامية لغير المسلم ، وقدرته على التصور والتفهم لأبعاد الموضوع المناقش .

وفي الباب الثالث يناقش الماوردي قضية تقليد الامارة على البلاد ، فقسمها قسمين : امارة عامة يكون فيها الأمير مفوضاً من الامام أو الخليفة

في حكم بلد ولاية على سائر أعماله ، ولذلك يراعي فيه ما يراعي في وزارة التفويض .

أما الامارة الثانية فهي إمارة خاصة يحد فيها نفوذ الامير بأمر من الامور كتدبير الجيش وسياسة الرعية ، ويرى الماوردي انه لا يجوز في الامارة الخاصة التعرض للقضاء أو الاحكام أو جباية الخراج أو الصدقات .

وفي الباب الرابع يتناول الماوردي تقليد الامارة على الجهاد فيراها مختصة بقتال المشركين ويقسمها الى ولاية مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب ، وولاية يفوض فيها الى الأمير جميع أمرها . ثم يتحدث عن احكام امارة الجيش وما يجب أن يتوافر في أمير الجيش من صفات ، وواجبات الأمير نحو جيشه ، وواجبات المحاربين نحو الله ونحو قائدهم .

وفي هذا الباب كذلك يتحدث الماوردي عن آداب الحرب والاسلام ، فينه عن قتل من لم يقاتل خاصة من النساء والولدان ، كما ينه عن الفساد والغلول والزنا لانه « ما فسد جيش قط الا قذف الله في قلوبهم الرعب .. وما غل جيش قط الا سلط عليهم الرجلة . . . وما زنا جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان » .

أما الباب الخامس فقد جعله الماوردي للولاية على حروب المصالح وهم أهل الردة وأهل البغي والمحاربين .

وفي الباب السادس يتناول الماوردي مبحثا هاماً أفاض في درسه وتوضيح موقفه فيه ، وهو موقف كما سنرى يستند على تأصيل وتوافر رصيد فكري لمفهوم الحرية والديمقراطية والعدالة .

خصص الماوردي الباب السادس هذا لولاية القضاء ، فنص على

مبدأ استقلال القضاء، وتحريم عزل، اذا مات من عينهم فقال « اذا مات الامام لم تنعزل قضاته » .

ويذكر الماوردي في هذا الباب الصفات التي يجب أن تتوافر في القاضي على هيئة نصائح هي القول الفصل في تلك الوظيفة . يقول « وليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله وإن لم يكن له خصم ، لأنه قد يستعديه فيما يليه . . . وليس له أن يحكم لأحد من والديه ولا من أولاده لأجل التهمة ويحكم عليهم لارتفاعها ، وكذلك لا يشهد لهم ويشهد عليهم ، ويشهد لعدوه ولا يشهد عليه ، ويحكم لعدوه ولا يحكم عليه ، لأن أسباب الحكم ظاهرة وأسباب الشهادة خافية » .

ويتناول الماوردي في الباب السابع ولاية المظالم وشروطها واختصاصها وقواعدها .

وفي الباب الثامن يتحدث عن ولاية النقابة على ذوي الانساب الشريفة كالطالبين والعباسيين. ويخصص الباب التاسع للولاية على امامة الصلوات ، والعاشر للولاية على الحج والحادي عشر الولاية على الصدقات والثاني عشر للولاية على الفيء والغنيمة والثالث عشر في وضع الجزية والخراج ، والرابع عشر فيما يختلف أحكامه من البلاد والخامس عشر في احياء الموات واستخراج المياه والسادس عشر في الحمى والارفاق والسابع عشر في أحكام الاقطاع والثامن عشر في وضع الديوان وذكر احكامه والتاسع عشر في أحكام الجرائم ، والباب العشرون في أحكام الحسبة .

وهكذا يتضح لنا كيف استطاع الماوردي ان يكون منظراً سياسياً ومنظراً اجتماعياً في آن واحد ، كما استطاع أن يؤكد من خلال مؤلفه رحابة أفقه ومرونة تفكيره .

نماذج من كتاب الاحكام السلطانية

(١)

في شروط الناظر في المظالم

[الباب السابع ـ ولاية المظالم]

« من شروط الناظر فيها ان يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج في نظره الى سطوة الحماة ، وثبت القضاة ، فيحتاج الى الجمع بين صفات الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر ، نافذ الأمر في الجهتين ، فإن كان ممن يملك الأمور العامة كالوزراء والامراء ، لم يحتج النظر فيهما الى تقليد ، وكان له بعموم ولايته النظر فيها .

وان كان ممن لم يفوض إليه عموم النظر احتاج الى تقليد وتولية ، اذا اجتمعت فيه الشروط المقدمة .

وهذا إنما يصح فيمن يجوز أن يختار لولاية العهد أو لوزارة التفويض او لامارة الاقاليم ، إذا كان نظره في المظالم عاما . فإن اقتصر به على تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه وامضاء ما قصرت يدهم عن امضائه ، جاز أن يكون دون هذه الرتبة في القدر والخطر ، بعد أن لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يستشفه الطمع الى رشوة » .

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
السيوطي (٨٤٩ - ٩١٠ هـ)

ترجم جلال الدين السيوطي لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة » أسوة بما فعل بعض المؤلفين قبله ، ومنهم ياقوت الحموي في معجم الأدباء وابن الخطيب في كتابه الإحاطة والحافظ تقي الدين الفاسي في كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين . وابن حجر العسقلاني في كتابه الأعلام وغيرهم .

قال السيوطي إنه « عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي » .

وكان مولده « بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة » .

وقد ولد جلال الدين السيوطي بالقاهرة في بيت علم ، فقد كان جده الأعلى « همام الدين » من مشايخ الصوفية ، وكان والده فقيها شافعيا ، تولى قضاء أسيوط ، ثم درس الفقه بالجامع الشيخوني وخطب بالجامع الطولوني .

ويذكر جلال الدين السيوطي أن الأرجح في سبب نسبتهم بالخضيري . محلة ببغداد يقال لها الخضيرية ، ويعتقد أن جده الأكبر نزح منها .

درس جلال الدين القرآن والفقه والأصول والنحو على كبار مشايخ وعلماء عصره منهم الشيخ شهاب الدين الشارمساحي ، والشيخ علم الدين البلقيني والشيخ شرف الدين المناوي ، وتقي الدين الشبلي الحنفي والشيخ سيف الدين الحنفي وغيرهم

وهكذا أصبح جلال الدين السيوطي عالماً فقيهاً في علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع

وللجلال الدين السيوطي عددٌ كبير من المؤلفات ذكرها في كتابه وعددها بثلاثمائة كتاب ومن هذه المؤلفات(سنذكر بعضاً مما طبع من مؤلفاته فقط)

- الإتقان في علوم القرآن . .
- الدر المنثور في التفسير المأثور .
- معجمات الأقرآن في مبهمات الأقران .
- إسعاف المبطأ برجال الموطأ .
- شرح شواهد المغنى .
- جمع الجوامع .
- عقود الجمان في المعاني والبيان .
- طبقات الحفاظ .
- بغية الوعاة .
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

واعتزل السيوطي الناس في أواخر أيامه ، تاركاً التدريس والافتاء ، وأقام بجزيرة الروضة (المنيل) للعبادة والتأليف ، وقد ألف في ذلك كتابه « التنفيس في الإعتذار عن الإفتاء والتدريس » . وبقي بالروضة حتى توفي سنة ٩١١ هـ .

أما كتاب حسن المحاضرة ، فمؤلف يضم أخبار مصر منذ القدم حتى عصر المؤلف فيذكر المواضع والأحاديث التي وقع فيها ذكر مصر ثم ما

أورده المؤلفون من أخبار مصر بقصد الكشف عن حياة مصر العلمية والأدبية .

ويصف السيوطي في الجزء الأول من كتابه إقليم مصر ومن نزل بها من أولاد آدم ، ومن ملكها قبل الطوفان وبعده ، ومن دخلها من الأنبياء وأخبار الصديقين والسحرة الذين آمنوا بموسى .

ويذكر بعد ذلك عجائبها وخاصة الأهرام ومنارة الإسكندرية وعجائبها . ثم دخول العرب مصر في خلافة عمر وبناء المسجد الجامع والدور والحمامات ، ومن دخلها من الصحابة بعد ذلك ، ويأخذ بعد ذلك في الترجمة لمشاهير من كان بمصر من الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث ونقاده وفقهاء الشافعية من المالكية والحنفية والحنابلة ، وكذلك أئمة القراءات والنحو واللغة والحكماء والأطباء والمنجمين والوعاظ والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء ، ويترجم لنفسه مع هؤلاء .

أما الجزء الثاني فيتناول فيه جلال الدين السيوطي أمراء مصر منذ أن فتحت إلى أن ملكها بنو عبيد ، ثم بنو أيوب ، ثم من قام بها من الخلفاء العباسيين .

ويذكر قضاة مصر ووزرائها وكتاب السر ، ويتحدث عن مساجد مصر ، وأمهات المدارس .

ثم يتحدث عن أمور متفرقة ، فيذكر الحوادث الغريبة بمصر ، وحمام الرسائل ، والزي والكتابة على التقاليد والمعاملة ولطائف مصر ، والنيل وجزيرة الروضة والمقابر والخليج وبركة الحبيس .

ويختتم الكتاب بالحديث عن الأزهار والفواكه الموجودة بمصر ، وما جاء فيها من أشعار .

الشبلي، محمد بن أبي بكر : السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر .

نماذج من كتاب حسن المحاضرة

في ذكر البشارة بوفاء النيل

(١)

« جرت العادة كل سنة إذا أوفى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك الى البلاد لتطمئن قلوب العباد ، وهذه عادة قديمة ، إذ لم يزل كتاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة . فمن إنشاء القاضي الفاضل في وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين بن أيوب :

نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أضوئها بزوغاً ، وأفضاها سبوغاً ، وأصفاها ينبوعاً ، وأمدها بحر مواهب ، وأضمنها حسن عواقب . النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويفيضها مده وجزره ، ويروي النبات غمره ، ويحيي مطلعه الحيوان ، وثمرات الأرض صنوان وغير صنوان .

وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا ، فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب ، وأمن يوم بشراه من كان خائفا يترقب . ورأينا الإبانة عن لطائف الله التي حققت الظنون ، ووفت بالرزق المضمون إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

(٢)

في ذكر جزيرة الروضة

ذكر جزيرة مصر، وهي المسماة الأن بالروضة، قال المقريزي: اعلم أن الروضة تطلق في زماننا على الجزيرة التي بين مدينة مصر وبين مدينة الجيزة، وعرفت في أول الاسلام بالجزيرة، وجزيرة مصر، ثم قيل لها: جزيرة الحصن. وعرفت الروضة من زمن الأفضل ابن أمير الجيوش. الى اليوم. انتهى.

وقال ابن المتوج في كتابه «ايقاظ المتغفل، واتعاظ المتأمل»: إنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها. وبحر النيل حائز لها ودائر عليها. وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن في غيرها.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدة، فلما طال حصارها وهرب الروم منها ضرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها وكانت مستديرة عليها.

واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون في سنة ثلاثمائة وستين ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل.

وقال المقريزي: اعلم أن الجزائر التي هي الآن في بحر النيل كلها حادثة في الإسلام ما عدا الجزيرة التي تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر، فإن العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص الى أرض مصر وحاصروا الحصن الذي يعرف اليوم بقصر الشمع في مصر حتى فتحه الله عنوة على المسلمين، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر، لم يبلغني الى الآن متى حدثت، وأما غيرها من الجزائر كلها فقد تجددت بعد فتح مصر.

وإلى هذه الجزيرة التجأ المقوقس لما فتح الله على المسلمين النصر ، وصار بها هو ومن معه من مجموع الروم والقبط » .

(٣)

من ذكر من كان بمصر من المؤرخين

. . . أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد الغرناطي الأديب الإخباري الشهير ، صاحب التصانيف الأدبية ، ولد بغرناطة سنة عشر وستمائة ، وأخذ عن الشلوبين وغيره ، وجال في الأقطار ، ودخل مصر والشام وبغداد ، وألف : المغرب في حلى المغرب . والمشرق في حلى المشرق ، والطالع السعيد في تاريخ بلده ، مات بتونس سنة خمس وثمانين وستمائة .

ـ الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار ، صاحب التاريخ المسمى بزبدة الفكرة ، من أحد عشر مجلداً ، والتفسير . مات سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ـ ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيري ، أحد العدول بمصر ولد بها في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة وسمع وحدث ، وألف تاريخ مصر ، سماه : ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل . روى عنه البدر بن جماعة ، مات بمصر في المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة » .

الفهرست

صدر للمؤلف :

أولا : دراسات وأبحاث

١ ـ لغة الشعر العربي الحديث ١٩٧٩
٢ ـ اتجاهات القصة القصيرة في الأدب العربي المعاصر ١٩٧٩
٣ ـ من مصادر التراث العربي ١٩٨٠
٤ ـ مقالات في النقد الأدبي ١٩٨١
٥ ـ اتجاهات الرواية العربية المعاصرة ١٩٨٢

ثانياً : مجموعات قصصية :

١ ـ رحلة منتصف الليل ١٩٦٥
٢ ـ اليتيم ١٩٦٧
٣ ـ ايقاعات حزينة من زمن الموت ١٩٨٢